الأخـــلاق
فى الـقـرآن والـسـنـة

(الجزء الأول)

الدكتور

على الخطيب

أستاذ و رئيس قسم الأدب والنقد

وعضواتحاد كتاب مصر و عضو رابطة الأدب الاسلامى العالمية

والعميد الأسبق لكلية اللغة العربية

فرع جرجا – سوهاج

دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع

٢١٢
ع . خ

الخطيب ،علي .

الأخلاق في القرآن والسنة / علي الخطيب.- ط١.- دسوق: دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع

١٧٦ ص ؛ ١٧,٥ × ٢٤,٥سم .

تدمك : 7–344 – 308 – 977 – 978

١. الأخلاق الإسلامية

أ - العنوان .

رقم الإيداع : ١٩٤٢٦

الناشر : دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع

دسوق - شارع الشركات- ميدان المحطة

هاتف : ٠٠٢٠٤٧٢٥٥٠٣٤١ - فاكس: ٠٠٢٠٤٧٢٥٦٠٢٨١
E-mail: elelm_aleman@yahoo.com
elelm_aleman@hotmail.com

2012

إهداء

إلى روح زوجي فى عالم الخلد

ثم إلى والدي ، ووالديها

كفاء ما قدما ، و جزاء ما أحسنا .

الفهرس

تابع الفهرس

مقدمـــة

لقد حدد رسول الله – صلى الله عليه وسلم – الغاية من بعثته والمنهج الذى تتغياه رسالته ، وهوالدعوة الى الأخلاق وذلك بقوله – صلى الله عليه وسلم :- **إنما بُعِثْت لأتمم مكارم الأخلاق".**

فهذا الحديث على وَجَازَتِهِ يحمل كبيرالمعاني و غزيرالفوائد حيث إن الإسلام وما يحويه ، ويأمر به من عبادات مرجعه الأخلاق ، فأية عِبَادة كانت فرضا أو سنة غير مقبولة من المسلم ما لم تكن العبادة مصحوبة بخلق كريم .

وقد اشتمل القرآن الكريم آيات كثيرة تأمر بالخُلُق الفاضل فى سور شتى وآيات كثيرة من كتاب الله العزيز....

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [سورة النور١٩ :٢٠]

والمعنى إن الذين يريدون أن ينتشر الفعل القبيح المفرط فى القبح مثل إشاعة الرذيلة ، وغيرها من المنكرات فى المؤمنين الأطهار، والمسلمين الأخيار توعدهم الله بالعذاب الأليم فى الدنيا والآخرة ، وأما فى الدنيا فيكون بإقامة حد القذف عليهم ، وأما فى الآخرة فلهم عذاب جهنم وساءت مصيرا .

يقول "الحسن" : عُنِيَّ بهذا الوعيد واللَّعين المنافقين ، فإنهم أحبوا إيذاء رسول الله – صلى الله عليه وسلم – و ذلك كُفْر، وملعون صاحبه (١) .

والله سبحانه وتعالى ، يعلم خفايا الأمور، ولكن الناس لا يعلمون .

يقول الإمام الفخر الرازي وهذه الجملة فيها حُسْن الموقع بهذا الموضع لأن محبة القلب كامنة ، ونحن لا نعلمها إلا بالأمارات أما الله - عز وجل – فلا يُخْفى عليه شيء

1- البحر المحيط ط ٦ ، ص ٤٣٩ بتصرف .

فى الأرض ولا فى السماوات ، فصار هذا الذكر نهاية فى الزَجْرِ لأن من أحب إشاعة الفاحشة وإن بَالَغ فى إخفاء تلك المحبة فهو يعلم أن الله تعالى يعلم ذلك منه ويعلم قَدْرَ الجزاء عليه .(١)

يقول الله – عزوجل :

﴿يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِى ٱلصُّدُورُ﴾ [سورة غافر :١٩]

ويقول سبحانه : ﴿سَوَآءٞ مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنۡ هُوَ مُسۡتَخۡفِۭ بِٱلَّيۡلِ وَسَارِبُۢ بِٱلنَّهَارِ﴾ [سورة الرعد :١٠]

ويقول عزوجل :

﴿وَإِن تَجۡهَرۡ بِٱلۡقَوۡلِ فَإِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى﴾ [سورة طه :٧]

إن الله – سبحانه وتعالى – لما بَيَّنَ ما على أهل الافك ، و ما على الذين سمعوا منهم ، وما ينبغي أن يتمسكوا به من آداب وأخلاق إسلامية كريمة ، اتبعه **بقوله** ويقول عزوجل :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلۡفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ... ﴾ [سورة النور :١٩]

وذلك فقد شارك فى هذا الذنب ، كما شارك فيه من فَعَلَهُ ، والذين لم ينكروه كأنهم فعلوه ، وليعلم أهل الافك ، كما أن عليهم العقوبة فيما أظهروه ، يستحقون العقاب بما أَسَرْوُه من محبة إشاعة الفاحشة فى المؤمنين، و يفيد قول الله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ ... ﴾

العموم ، وأن ذلك يشمل كل من كان بهذه الصفة ، ومما لا ريب فيه إن هذه الآية نزلت فى قذف السيدة عائشة بنت أبى بكر – رضي الله عنها – إلا أن العبرة بعموم اللَّفظ لا بخصوص السبب ، فوجب إجراؤها على ظاهرها فى العموم ومما يدل على أنه لا يجوز تخصيصها بقذف السيدة الفضلى " عائشة – رضي الله عنها – قوله تعالى " فى الذين

1- التفسير الكبير ، الفخر الرازى ص ٢٣ ص ١٨٣ .

آمنوا " فهذا يفيد أن الآية عامة تخص المؤمنين جميعاً صوناً لأعراضهم ، وحفاظاً على أخلاقهم ونشر السيرة العطرة ، لا لنشر الشائعات والافتراءات للنيل من أعراض المسلمين والمسلمات .

وروى عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أنه قال :-

" أنى لأعرف قوماً يضربون صدورهم ضربا يسمعه أهل النار ، وهم الهمازون اللَّمازون الذين يلتمسون عورات المسلمين ، ويهتكون ستورهم ويشيعون فيهم من الفواحش ما ليس فيهم ".

وعنه أيضاً – عليه السلام :-

" لا يستر عبد مؤمن عورة عبد مؤمن إلا ستره الله يوم القيامة ، ومن أقال مسلماً عَثْرَته أقال الله عَثْرَتَهُ يوم القيامة ، ومن سَتَرَ عورة ستر الله عورته يوم القيامة " .

و عنه أيضا – عليه السلام :-

" المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه " .

و عن عبد الله بن عمر . عن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال :

" من سره أن يُزَحْـــــزَح عن النار ويدخل الجنة فلتأته منيته وهو يشهد أن لا اله إلا الله ، وان محمداً رسول الله و يحب أن يُؤتى إلى الناس ما يُؤتى إليه ".

وعن أنس – رضي الله عنه – قال :قال – عليه الصلاة والسلام:-

" لا يؤمن العبد حتى يحب لأخيه ما يحبه لنفسه من الخير".

الأستاذ الدكتور / على الخطيب
أستاذ ورئيس قسم الأدب والنقد
وعضو اتحاد كتاب مصر وعضو رابطة الأدب
الإسلامي العالمية
والعميد الأسبق لكلية اللغة العربية
جامعة الازهر الشريف – فرع جرجا سوهاج

" الصفح والعفو "

ومن الآيات التى تأمر بحسن الخُلُق ، و مقابله السيئة بالحسنة ، والشر بالخير قول الله تعالى : ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [سورة النور:٢٢] .

والمعنى " لا يحلف أهل الفضل فى الدين ، وأصحاب الغنى واليسار وأهل الخلق الكريم ، أن لا يؤْتُوا أقاربهم من الفقراء والمهاجرين ما كانوا يعطونهم إياه من الإحسان وذلك لمنكر ارتكبوه ، وذنب فعلوه و سيئة اقترفوها ، و ليغفروا وليصفحوا عما حدث منهم وما ارتكبوه من خطأ فى حقهم ، وليعودوا إلى ما كانوا عليه من الإنفاق والإحسان ألا تحبون أيها المؤمنون الطاهرون أن يغفر الله لكم على عفوكم ، وصفحكم ، وإحسانكم إلى من أساء إليكم ؟ .

روى أن " أبا بكر – رضي الله عنه- لما سمع هذه الآية قال : بلى أحب أن يغفر الله لي " وأعاد النفقة مرة ثانية الى " مسطح " وكفر عن يمينه وقال :" والله لا انزعها منه أبدا ! .

وتدل الآية على فضل سيدنا أبى بكر- رضي عنه –وعلى خلقه الكريم ولا غرو فقد تَرَبّى هو والصحابة – رضوان الله تعالى عليهم – على مائدة الأخلاق مائدة رسول الله – صلى الله عليه وسلم - الذى امتدحه ربه – عز وجل – بقوله تعالى :

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [سورة القلم :٤]

فانظر أيها المسلم إلى رجل يعيد الإنفاق على رجل خاض فى عرضه وَلاَكَهُ بلسانه وطعنه فى شرفه وأساء إلى سمعته ، وهوالذى ينفق عليه ويأكل من بين يديه هو وأهله وقرابته ، ومع ذلك يكفر عن يمينه بعد أن اقسم ألاّ ينفق عليه امتثالاً لأمر الله – عزوجل – ولقول رسول الله – صلى الله عليه وسلم – :

" من حلف على يمين ورأى غيرها خيراً منها فليحنث فى يمينه ثم ليكفر " .

تلك هى الأخلاق فى الإسلام والله غفور رحيم ، مع كمال قدرته على العقاب .

وقد نزلت هذه الآية فى سيدنا " أبى بكر الصديق " بعد نزول القرآن الكريم ببراءة الصّديقة بنت الصّديق " أبى بكر " – رضي الله عنهما .

وكان قد آل على نفسه أنه لا ينفع مُسَطْحاً بنافعة أبدا ، فالآية تذكير " لأبى بكر" وللمؤمنين بأنهم يخطئون ثم يحبون أن يغفر الله لهم .

ولا يحلف أن يمنع البر عن مستحقيه حتى لو أساءوا ، ويقول الإمام الشهيد "السيد قطب " وهنا نَطلّــعُ على أُفُقٍ عال من آفاق يشرق فى نفس " أبى بكر الصديق " –رضي الله عنه – الذى مسه حديث الإفك فى أعماق قلبه ، والذى احتمل مرارة الاتهام لبيته وعرضه (١).

فما يكاد يسمع دعوة ربه إلى العفو ، وما يكاد يلمس وجدانه ذلك السؤال الموحى:

﴿ ...أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ... ﴾ [سورة النور:٢٢] .

1- فى ظلال القرآن ، للامام الشهيد سيد قطب جـ ٤ ، ص ٥ – ٢٥.

حتى يرتفع على الآلام وعلى مشاعر الإنسان و على منطق البيئة ، وحتى تشف روحه وترقّ و تشرق بنور الله ، فإذا هو يلبى داعياً الله فى طمأنينة وصدق ويقول :

"بلى والله أنى لأحب أن يغفر الله لي " ويعيد إلى " مسطح " النفقة فيحلف والله لا أنزعها منه أبدا و كان ذلك فى مقابل قَسَمَهُ الذى أقسمه " والله لا انفعه بنافعة أبدا " .

بذلك يمسح الله على آلام ذلك القلب الكبير و يغسله من أوحال المعركة وذلك ليبقى أبداً نظيفاً ذكياً ، مشرقا بالنور و يقول الإمام الفخر :" أعلم أنه تعالى كما أدب أهل الإفك ومن سَمِعَ كلامهم ، فكذلك أدب " أبا بكر" لما حلف انه لا ينفق على مُسَطح أبدا " .

والآية تدل على أن " أبا بكر" من أفضل الناس بعد رسول الله – صلى الله عليه وسلم – حيث قال : " أُولُوا الفضل " وهوا لمقصود بهذه الآية ولقد كان خوض الخائضين فى عرض "أبى بكر" – رضي الله عنه – أشد من وقع السهام حيث أنهم قرابته و ظلم القريب أشد وأقسي وأألم ، و يقول الشاعر :

و ظلم ذوى القربى أشدّ مضاضة على النفس من وقع الحسام المهند

واللهّ سبحانه و تعالى قال لسيدنا محمد – صلى الله عيه وسلم – :

" فاعف عنهم واصفح ، وقال فى حق سيدنا "أبى بكر" – رضي الله عنه – كان ثاني اثنين لرسول الله – صلى الله عيه وسلم – فى جميع الأخلاق حتى فى العفو والصفح. ويقول الله فى حق رسوله – صلى الله عيه وسلم – ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، وقول الله تعالى ﴿...أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ....﴾ [سورة النور:٢٢] .

علق اللّه – عز وجل – الغفران بالعفو والصفح . قال عليه الصلاة والسلام: " من لم يقبل عذراً لمتنصل كاذبا كان أو صادقاً فلا يَرِد على حوضي يوم القيامة " والمراد بالمتنصل هوالذى يبرئ نفسه من الذنب المتهم به ، فيتنصل منه وينفى التهمة عن نفسه ولا يعترف بها البتة وعنه عليه الصلاة والسلام أنه قال :" لا يكون العبد ذا فضل حتى يصل من قطعه ، و يعفو عن من ظلمه ويعطى من حرمه " ومن ذلك ما حدث بين " الزرقاء بنت عدى" – رضي اللّٰه عنها – وسيدنا" معاوية بن أبى سفيان "– رضي اللّٰه عنه– فعن الزهري قال : " حدثني جماعة من بني أمية فيمن كان يُسْمر مع معاوية أن معاوية – رضي اللّه عنه: " سَمَر ليلة فذكر الزرقاء بنت عدي بن غالب بن قيس امرأة كانت من أهل الكوفة وكانت ممن يُعِين عَلِيّاً – عليه السلام – يوم صفّين فقال لأصحابه : أيكم يحفظ كلام الزرقاء فقال القوم : كلنا نحفظه يا أمير المؤمنين ، قال : فما تشيرون عَلَيَّ فيها ، قالوا نشير عليك بقتلها ، قال : بئس ما أشرتم عَلَيّ به أيحسن بمثلي أن يتحدث الناس أني قتلت امرأة بعدما ملكت وصار الأمر لي .

ثم دعا كاتبه في اللَّيل فكتب إلى عامله في الكوفة ، أن أوفد إلى الزرقاء ابنة عُدَيّ مع ثقة من محرمها وعدةٍ من فرسان قومها ، ومهدها وطاءً ليناً وسترها بسترٍ حصيف فلما ورد عليه الكتاب اركب إليها فأقرأها الكتاب **فقالت** : أما أنا فغير زائغة عن طاعة وإن كان أمير المؤمنين جعل المشيئة إليّ لم أَرْ من بلدي هذا وإن كان حكم الأمر فالطاعة له أولى بي.

فحملها في هودج وجعل غشاءه خزاً مبطناً بعصب اليمن ثم أحسن صحبتها ،وفي حديث المقدمي فحملها في عمارية جعل غشاءها خزاً أدكن مبطناً

فلما قدمت على معاوية قال لها : مرحباً وأهلاً خير مقدم قدمه وافد كيف حالك يا خالة وكيف رأيت مسيرك **قالت:** خير مسير كأني كنت ربيبة بيت أو طفلاً ممهداً ، **قال** بذلك أمرتهم فهل تعلمين لِمَّ بعثت إليك ، **قالت** : سبحان الله إن لي بعلم ما لم أعلم وهل يعلم ما في القلوب إلا الله .

قال : بُعِثت إليك أن أسألك ألست راكبة الجمل الأحمر يوم صفين بين الصّفين توقدين الحربَ وَتَحُضيْن على القتال فما حَمْلَكِ على ذلك .

قالت : يا أمير المؤمنين أنه قد مات الرأس وبتر الذنب والدهر ذو غير ومن تفكر أبصر والأمر يحدث بعده الأمر .

قال لها : صدقت فهل تحفظين كلامك يوم صفين قالت ما أحفظه .

قال: ولكني والله أَحْفَظه لله أبوك لقد سمعتك **تقولين** : أيها الناس إنكم في فتنةٍ غشتكم جلابيب الظلم ، وجارت بكم عن قصد المحجة فيالها من فتنة عمياء صماء يسمع لقائلها ولا بِنَظْارٍ لسائقها .

أيها الناس إن المصباح لا يضيء في الشمس، وإن الكوكب لا يُقَدْ في القمر وإن البغل لا يسبق الفرس ، وإن الزمرد لا يوازن الحجر ، ولا يقطع الحديد إلا الحديد ، إلا من استرشدنا أرشدناه ، ومن استخبرنا أخبرناه إن الحق كان يطلب ضالته فأصابها فصبراً يا معشر المهاجرين والأنصار فكان قد اندمل شعب الشتات، وَالتَأَمَتْ كلمة العدل ، وغلب الحق باطله ، فلا يعجلن أحد فيقول كيف وأنّى ليقضي الله أمراً كان مفعولاً ، إلا إن خضاب النساء الحناء وخضاب الرجال الدماء ، والصبر خيراً في الأمور عواقبا ، أيها إلى الحرب قدماً غير ناكصين فهذا يومٌ له ما بعده .

ثم قال معاوية : والله يا زرقاء لقد شاركت عَلَيّاً – عليه السلام – في كل دم سفكه .

فقالت : أحسن الله بشارتك يا أمير المؤمنين ، وأدام سلامتك مثلك من بشر بخير وَسُرَّ جليسه . **قال لها** : وقد سرك ذلك .

قالت : نعم والله لقد سرني قولك فإني بتصديق الفعل .

فقال معاوية : والله لوفاؤكم له بعد موته أحب إليّ من حبكم له في حياته أذكري حاجتك .

قالت : يا أمير المؤمنين إني قد آليت على نفسي أن لا أسأل أميراً أعنت عليه شيئاً أبداً، ومثلك أعطى عن غير مسألة ، وجاد عن غير طلب .

قال : صدقت فاقطعها ضيعة أَغَلّتْها في أول سنة عشرة آلاف درهم وأحسن صفدها وردها والذين معها مكرمين.[١]

ومذهب جمهور الفقهاء : أن من حلف عَلَىّ يمين فرأى غيرها خيراً منها انه ينبغي له أن يأتي الذى هو خير، ثم يكفر عن يمينه .

وقال بعضهم إنه يأتي بالذي هو خير وذلك كفارته ، أما الآيات فهى أن الله تعالى أمر " أبا بكر " بالحنث ، ولم يوجب عليه كفارة ، وأما الخبر فهو ما روى عن النبي – صلى الله عليه وسلم – **أنه قال** :" من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها فليأت الذى هو خير"[٢] وذلك كفارته .

1 - بلاغات النساء لطيفور ، بتحقيق د . عبد الحميد هنداوى ص ٩٠ ، و ما بعدها ، دار الفضيلة .
2 - مفاتيح الغيب جـ ١١ ، ص ٥٠٩ : ص ٥١٨ .

" الإستئذان "

ومن الآيات القرآنية الكريمة الدالة على الأخلاق ، قول الله تعالى :-

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٌ لَّكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ [سورة النور:٢٧]

وهذه الآية تدل دلالةً حاسمةً على عناية القرآن الكريم لأمور الدنيا والدين وخاصة الأخلاق التى تنظم حياة المسلم كلّها وتضيء أمامه الطريق المظلم حتى يحظى بالسعادة فى الدنيا والآخرة ، ومن ذلك إن الله تعالى لما حذر من قذف المحصنات والمسلمات الغافلات وشدّد العقاب فيه ، وكان طريق هذا الاتهام مخالطة الرجال للنساء ، ودخولهم عليهم فى أوقات الخلوات وقد أرشد الله تعالى إلى الآداب الشرعية فى دخول البيوت فأمر بالاستئذان قبل الدخول ، والتسليم بعده فقال : لا تدخلوا بيوت الغير حتى تستأذنوا وتسلموا على أهل المنزل فإن ذلك الاستئذان والتسليم خير لكم من الدخول فجأة لتتعظوا وتعملوا بموجب هذه الآداب الراشدة (١) .

يقول الإمام "القرطبي" والمعنى :

" إن الاستئذان والتسليم خير لكم من الهجوم بغير إذن ومن الدخول على الناس بَغْتَةً ، أو من غير تحية الجاهلية فقد كان الرجل منهم إذا دخل بيتاً قال:"حييتم صباحا " و حييتم مساءً "و دخله فربما أصاب الرجل مع امرأته فى لحاف " .

1- صفوة التفاسير جـ ٢ ، ص ٣٣٤.

وروى أن رجلا قال للنبي – صلى اللّه عليه وسلم :-

" أأستئذن على أميّ قال : نعم ، قال : ليس لها خادم غيري ، أأستئذن عليها كلما دخلت؟قال رسول اللّه – صلى اللّه عيه وسلم – أتحب أن تراها عارية؟ قال : لا ، قال – صلى اللّه عيه وسلم – : فأستئذن عليها " [1] .

لأن الدخول فجأة وجه من وجوه التهمة ، أخى المسلم ، أختى المسلمة إن الإسلام لا يعتمد على العقوبة فى إنشاء مجتمعه النظيف ،بل يعتمد على الوقاية وهى خير من العلاج ، والإسلام لا يحارب الفطرة ولا دوافعها ولكنه ينظم هذه الفطرة ، وينظم دوافعها فى إطار يحفظ للمسلم كيانه وخلقه ، وسيرته والمقصود بمنهج التربية فيه الإسلام :

تضييق فرص الغواية وإقصاء عوامل الفتنة ومن هنا يجعل الإسلام للبيوت حرمة لا يجوز المساس بها، فلا يفاجئ الناس فى بيوتهم بدخول الغرباء عليهم إلاَّ بعد استئذانهم والسماح لهم بالدخول خشية أن تقع أعينهم على ما حرم اللّه ، فالبيت عورة يجب على المسلم صونها ، وصيانتها ، والبيوت سكن وستر للمسلم ، ولا يمكن أن يكون البيت ستراً للمسلم إلاَّ إذا كان آمنا ومصوناً فتسكن إليه أرواحهم ، وتطمئن نفوسهم ، ويأمنون على عوراتهم و حرماتهم ، ويتجنبون أعباء الحذر والحرص المرهقة للنفس والأعصاب ولا تكون البيوت كذلك إلاَّ حين تكون حرماً آمنا ،لا يجوز لأحد استباحته إلاَّ بعلم أهله، وإذنهم و فى الوقت الذى يريدونه ، والساعة التى يحددون ، وعلى الحالة التى يحبون .

---

1 - البيضاوى جـ٢ ، ص ٥٧ .

فإن استباحة البيوت من الداخلين بدون استئذان يجعل أعينهم تقع على العورات وتلتقي بمفاتن تثير الشهوات ، وتهيئ الفرصة للغوايات التى تنشأ من اللَّقاءات العابرة فتتحول إلى نظرات قاصدة ، ثم تتحول بعد ذلك إلى علاقات آثمة أوالى شهوات محرمة تنشأ عنها العُقَدْ النفسية والانحرافات .

من أجل ذلك أدب الله المسلمين بهذا الأدب العالي ألا وهو أدب الاستئذان على البيوت والسلام على أهلها لإيناسهم ، وإزالة الوحشة من نفوسهم قبل الدخول عليهم ويعبر القرآن الكريم عن الاستئذان بالاستئناس ، وهو تعبير يوحى بلطف الاستئذان كما يوحى بلطف الطريقة التى يجيء بها الطارق فتحدث فى نفوس أهل البيت أُنساً به واستعداداً لاستقباله وهى لغة دقيقة لطيفة لرعاية أحوال النفوس ، ولتقدير ظروف الناس فى بيوتهم ، و ما يلابسها من ضرورات لا يجوز أن يَشْقَى بها أهلها ، ويحرجوا أمام الطارقين فى ليل أو نهار.

وبعد الاستئذان إما أن يكون فى البيت أحداً أو لا يكون فان لم يكن فيه أحد فلا يجوز اقتحامه بعد الاستئذان لأنه لا دخول إلا بأذن قال تعالى :

﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُواْ فَٱرْجِعُواْ ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾[سورة النور :٢٨]

وان كان فيها أحد من أهلها فإن مجرد الاستئذان لا يبيح الدخول ، فإنما هو طلب الإذن ، فان لم يأذن أهل البيت فلا دخول و يجب الانصراف دون تأخر أو انتظار قال تعالى : ﴿ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُواْ فَٱرْجِعُواْ ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ﴾ .

ارجعوا دون غضاضة فى أنفسكم فللناس أسرارهم واعذارهم ، ويجب أن يُتْرَكَ لهم وحدهم تقدير ظروفهم فالله هوالمطلع على خفايا القلوب ، و على ما فيها من دوافع ومثيرات فأما البيوت العامّة مثل الفنادق ، والبيوت المعدة للضيافة

منفصلة عن السكن فلا حرج فى الدخول إليها بغير استئذان دفعا للمشقة ما دامت عِلْةَ الاستئذان منتفية ، **قال تعالى** : ﴿لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴾ [سورة النور :٢٩]

هذا هو الخُلُق الإسلامى الذى يَصُون البيوت من أعين ذئاب البشر حيث إن النظر يريد الزِنا ، **و يقول شوقي أمير الشعراء :**

نظرةٌ فابتسامةٌ فموعداً فلِقاءُ .

ويحفظ اللّٰه أعراض المسلمين ، وعوراتهم حتى لا تكون عرضة للنظر من أولى الإربة وحتى يكون البيت المسلم بيتاً نظيفاً ، مصوناً ، عفيفاً ، يعيش فى ظِلاَل الإسلام ، وما يأمر به من خلق يحفظ على المسلم دينه وعرضه .

يقول الشاعر :

وكنت إذا أرسلت طرفك رائدا لقلبك يوما أتعبتك المناظر
رأيت الذى لأكله أنت قادراً عليه وعلى عن بعضه أنت صابر

ويروى أن قِسّيسا أراد أن ينال من المسلمين بالطّعن فى أم المؤمنين السيدة "عائشة "– رضي اللّٰه عنها – فقال:إن الناس رموها بإلافك ولا ندرى أهي بريئة أم متهمة؟ .

فأجابه بعض الحاضرين بقوله : اسمع يا هذا ، هناك امرأتان اتهمتا بالزِنا وقد برأهما القرآن الكريم ، إحداهما ليس لها زوج وقد جاءت بولد ، والأُخرى لها زوج ولم يأتها ولد – يقصد " مريم " و " عائشة " فأيهما أحرى بالتهمة ؟ فخرس القسيس .

فعن " أبى موسى الاشعرى " – رضى اللّه عنه – قال : قال رسول اللّه – صلى اللّه عليه وسلم :" الاستئذان ثلاث ، فإن أذن لك وإلا فارجع " (١) .

وعن ربعي بن حراش قال : حدثنا رجل من بنى عامر ، انه استأذن على النبي – صلى اللّٰه عليه وسلم – وهو فى بيته ، فقال :" أَأَلِجُ ؟ فقال رسول اللّه – صلى اللّٰه عليه وسلم – لخادمه : " اخرج إلى هذا وعلمه الاستئذان ، فقال له : السلام عليكم أأدخل ؟ فسمعه الرجل فقال :" السلام عليكم أأدخل ؟ فأذن له النبي – صلى اللّٰه عليه وسلم – فدخل " (٢) .

---

1 - متفق عليه .
2- رواه ابو داود باسناد صحيح .

" السمع والطاعة "

ومن الآيات القرآنية الكريمة التى تأمر المسلم بحسن الخلق والسمع والطاعة وأولها السمع والطاعة لله ولرسوله ، قال تعالى :

﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحۡذَرُواْۚ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ [سورة المائدة :٩٢].

وقال تعالى :

﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ [سورة آل عمران :١٣٢].

وقال تعالى :

﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [سورة الأنفال :٤٦] .

وقال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ ﴾ [سورة الأنفال :٢٠] .

و قال تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ [سورة النساء :٥٩] .

و قال تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ أَعۡمَٰلَكُمۡ ﴾ [سورة محمد :٣٣].

والآية الكريمة :

﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [سورة النور :٥١].

يعنى سمعاً وطاعة ولهذا وصفهم اللّه تعالى بالفلاح ، و هو نيل المطلوب والسلامة من المرهوب فقال – عزوجل :-" وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ "

وقال " قتادة " – رضي اللّه عنه – أن يقولوا : سمعنا وأطعنا ، وذكرلنا أن "عيادة بن الصامت " وكان – رضي اللّه عنه – عقبياً بدرياً ، يعنى شهد بيعة العقبة وَأَحَدْ رجال غزاة بدر الكبرى ، واحد نقباء الأنصار إنه حضره الموت ، قال لابن أخيه " جنادة بن أبى أمية " ألا أنبئك بماذا عليك ، وبماذا لك ، قال : بلى ، قال :" فان عليك السمع والطاعة فى عسرك ويسرك ، ومنشطك ومكرهك وأثرة عليك ، وعليك أن تقيم لسانك بالعدل وأن لا تنازع الأمر أهله إلا أن يأمروك بمعصيته اللّه بواحا ، فما أمرت به من شيء يخالف كتاب اللّه فاتبع كتاب اللّه قال –رضي اللّه عنه – قال لا إسلام إلاّ بطاعة اللّه .

ولا خير إلا فى جماعة . والنصيحة للّه ولرسوله وللخليفة وللمؤمنين عامة، قال وقد ذكرلنا أن " عمربن الخطاب " – رضي اللّه عنه – كان يقول :" عروة الإسلام شهادة أن لا اله إلا اللّه وإقامة الصلاة وايتاء الزكاة والطاعة لمن ولاه اللّه أمر المسلمين ، ومعنى يطع اللّه ورسوله أى فيما أمراه به وترك ما نهياه عنه ، ويخشى اللّه فيما مضى من ذنوبه ويتقيه فيما يستقبل [١]، وقوله فأولئك هم المفلحون يعنى الذين فازوا بكل خير، وأمنوا من كل شر فى الدنيا والآخرة .

1 - تفسير القرآن العظيم ، لابن كثير ، المجلد الثالث ص ٢٩٨ و ما بعدها .

ويقول رسول الله – صلى الله عليه وسلم - :

" الدين النصيحة قلنا لمن يا رسول الله ، قال : لله ، ولكتابه ، ولرسوله و لأئمة المسلمين وعامتهم " .

ويقول بعض المفسرين فى معنى هذه الآية أى كان الواجب عليهم عندما يدعون إلى رسول الله للفصل بينهم و بين خصومهم أن يسرعوا و يقولوا " سمعاً وطاعة .

فلو كان هؤلاء مؤمنين لفعلوا ذلك ، ويقول الإمام " الطبري " ولم يقصد به الخبر ولكنه تأنيب من الله للمنافقين ، و تأديب منه للآخرين ، وأولئك المسارعون الى مرضاة الله هم الفائزون بسعادة الدارين (١) .

وان حكم الله هوالحكم الوحيد المبرأ من مظنة الجور والحيف والظلم لأن الله تعالى يقول : ﴿ ...وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [سورة الكهف :٤٩].

فكل الخلق أمامه سواء ، وكل حُكْم عدا حكم الله مظنة الجور والظلم فالبشر لا يملكون أنفسهم حين يشرعون ، وحين يشرع فرد و يحكم فلا بد أن يلحظ فى التشريع حماية نفسه و حماية مصالحه ، وكذلك حين تشرع طبقة لطبقة و دولة لدولة و كتلة لكتلة أما حين يشرع الله – عز وجل – فلا حماية ولا مصلحة ، إنما هى العدالة الطلقة من أجل ذلك كان الذين لا يرتضون حكم الله و حكم رسوله هم الظالمون ، أما المؤمنون حقا فلهم أدب غير هذا مع الله ورسوله ، وله قول آخر إذا دعوا الى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا :" سمعنا وأطعنا " والقول الذى يليق بالمؤمنين ، وينبئ عن إشراق قلوبهم بالنور :

---

1 - الطبري جـ ١٨ ، ص ١٢٠ ، التفسير الكبير جـ٢٤ ، ص ٢١ .

﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ [سورة النور :٥١].

فهو السمع والطاعة بلا تردد ولا جدال ولا انحراف ، سمع وطاعة مستمدان من الثقة المطلقة فى أن حكم الله ورسوله هوالحكم الحق والعدل وما عداه الجور، والظلم والحيف ، والهوى ، والأهواء الشخصية ، وأولئك هم المفلحون أى لأن الله هوالذى يدبر أمورهم و ينظم علاقتهم ، ويحكم بينهم بعلمه وعدله ، فلابد أن يكونوا خيراً من الذين يدبر أمرهم بَشَر مثلهم فهذا خالق وذلك مخلوق ، وهذه الآية الكريمة تتحدث عن الطاعة والتسليم فى الأحكام [1] .

ومن الآيات القرآنية الكريمة التى تدعوالى التسلح بالأخلاق الكريمة ومراعاة مشاعر المسلمين والمسلمات ، والحفاظ على المحرمات وصون البيوت والعورات **يقول الله تعالى** : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُواْ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [سورة النور :٥٨].

هذه الآية الكريمة اشتملت على آداب الاستئذان فى داخل البيوت فالخادم من الرقيق والأطفال المميزون الذين لم يبلغوا الحلم يدخلون بلا استئذان إلا فى ثلاثة أوقات تنكشف فيها عادةً العورات فيهم يستأذنون فيها وهذه الأوقات

---

1 - فى ظلال القرآن الكريم جـ ٤ ، ص ، والتفسير الكبير .جـ ١١ ، ص ٦٢١ ، وما بعدها و صفوة التفاسير جـ٢ ، ص ٣٣٤٥ و مابعدها .

هى : قبل صلاة الفجر حيث يكون الناس فى ثياب النوم للراحة ، ووقت الظهيرة عند القيلولة ، و بعد صلاة العشاء حين يخلعون ملابسهم كذلك و يرتدون ملابس النوم .

و سَمْاَهُم عورات لانكشاف العورات فيها .

وفى هذه الأوقات الثلاثة لابد أن يستأذن الخدم وأن يستأذن الصّغار المميزون الذين لم يبلغوا الحلم حتى لا تقع أنظارهم على عورات أهليهم . وهو أدب يغفله الكثيرون فى حياتهم المنزلية مستهينين بآثارهم النفسية والعصبية والخُلُقِيّة ظانين أن الخدم لا تمتد أعينهم إلى عورات السّادة وإن الصّغار قبل البلوغ لا ينتبهون لهذه المناظر، بينما يقرر علماء النفس أن بعض المشاهد التى تقع عليها أنظار الأطفال فى صغرهم هى التى تؤثر فى حياتهم كلها ، و قد تصيبهم بأمراض نفسية وعصبية يصعب شفاؤهم منها .

والله - عز وجل – يؤدب المؤمنين بهذه الآداب وهو يريد أن يبنى أُمَةً سليمة الأعصاب ، وسليمة الصدور ، ومهذبة المشاعر ، وطاهرة القلوب ، ونظيفة التصورات .

ويخصص هذه الأوقات الثلاثة دون غيرها لأنها مَظَنْـةَ انكشاف العورات ولا يجعل استئذان الخدم والصغار فى كل حين منعاً للحرج ، فهم كثيروا الدخول والخروج على أهليهم بحكم صغر سنهم أو قيامهم بالخدمة لقوله تعالى :

﴿ ...طَوَّٰفُونَ عَلَيۡكُم بَعۡضُكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ ﴾[سورة النور :٥٨].

وبذلك يجمع بين الحرص على عدم انكشاف العورات ، وازالة الحرج والمشقة لو حتم أن يستأذنوا كما يستأذن الكبار، فأما حين يدرك الصغار سن البلوغ ،

فإنهم يدخلون فى حكم الأجانب الذين يجب أن يستأذنوا فى كل وقت حسب النص العام الذى مضت به أية الاستئذان ،

ويعقب على الآية بقوله : ﴿ ...وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ... ﴾ [سورة النور :٥٨].

وذلك لأن المقام مقام علم الله بنفوس البشر، وما يُصْلِحُها من الأدب ومقام حكمته كذلك فى علاج النفوس والقلوب .

ويقول " **ابن كثير** " روى الإمام مالك واحمد بن حنبل وأهل السُنْة أن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال فى الهّرة أنها ليست نجسة ، وأنها من الطّوافين عليكم والطوافات و يغتفر فى الطوافين ما لم يغتفر فى غيرهم ، ولهذا ساق الرأي آنف الذكر ويقول ابن عباس – رضي الله عنه – ترك الناس ثلاث آيات فلم يعملوا بهن ، **الأولى :**

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ... ﴾ [سورة النور :٥٨].

وقوله تعالى فى سورة النساء :

﴿ وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ ... ﴾ [سورة النساء :٨].

والثالثة قول الله تعالى فى الحجرات :

﴿ ....إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ... ﴾ [سورة الحجرات :١٣].

وقال " مقاتل بن حيان " بلغنا أن رجلاً من الأنصار وا مرأته " أسماء بنت مرثد " صنعا للنبي – صلى الله عليه وسلم - طعاماً فدعا الناس يدخلون بغير إذن ، فقالت "أسماء " :" يا رسول الله ما أقبح هذا انه ليدخل على المرأة و زوجها فى ثوب واحد غلامهما بغير إذن فنزل قول الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ... ﴾ [سورة النور :٥٨].

فهذه الآية تدعو إلى الأخلاق الكريمة ، وتضع المناهج اللاَّئقة بالمسلم كي يتخذه نبراساً يضيء له الطريق حتى يفوز بسعادة الدارين الدنيا والآخرة .

كما أباح الدخول فى غير هذه الأوقات بعد الاستئذان لأنهم خدم يطوفون على أسيادهم للخدمة ، ويدخلون المنازل غدوة و عشية بغير إذن إلا فى تِلْكَ الأوقات التى بيناها آنفا و هى من قبل صلاة الفجر ، و حين تضعون ثيابكم من الظهيرة ، ومن بعد صلاة العشاء ، و هذا بيان للأحكام الشرعية ليتأدب بها المسلم والله عالم بأمور خَلْقِهِ حكيم فى تدبيره لهم ، أما إذا بلغ الأطفال الحلم وأصبحوا فى سن التكليف فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم .

و هذا تفصيل لأمور الشريعة والدين .

ويروى أن " ابن عباس " – رضي الله عنه – قال : أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بعث غلاماً من الأنصار إلى " عمر بن الخطاب " – رضي الله عنه – ليدعوه فوجده نائما فى البيت فدفع الباب وسلم فلم يستيقظ ، فعاد الغلام ، ودفع الباب وقام من خلفه وحركه فلم يستيقظ فقال الغلام : اللَّهُم أيقظه لي .

ودفع الباب ثم ناداه فاستيقظ وجلس ودخل الغلام فانكشف من " عمر بن الخطاب "- رضي الله عنه- شيء وعرف "عمر" إن الغلام رأى ذلك منه ، فقال: " وددت أن الله نهى أبناءنا ونساءنا ، و خدمنا أن يدخلوا علينا فى هذه الساعات إلاَّ بإذن ثم انطلق معه إلى الرسول – صلى الله عليه وسلم- فوجده قد نَزَلَّ عليه :

﴿ ..... يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ ﴾ [سورة النور :٥٨].

فَحَمَدَ الله تعالى " عمر بن الخطاب" عند ذلك .

وما ذاك يا " عمر " فأخبره بما فعل الغلام ، فتعجب رسول اللّه – صلى اللّه عليه وسلم – وَتَعَــرَفَ اسمه ومدحه وقال :" إن اللّه يحب الحليم الحيي العفيف المتعفف ويبغض البذيء الجريء السافل ، الملحف " وهذا ما يسمى بموافقات " عمر" – رضي اللّه عنه – .

وقيل نزلت فى " أسماء بنت أبى مرثد " حيث قالت إنا لندخل على الرجل والمرأة ولعلهما يكونان فى لحاف واحد ، و قيل دخل عليها غلام لها كبير فى وقت كرهت دخوله فيه فأتت رسول اللّه – صلى اللّه عليه وسلم – ، فقالت : إن خدمنا وغلماننا يدخلون علينا فى حال نكرهها ، فنزلت هذه الآية .

" الأدب فى الخَطَابة "

ومن الآيات القرآنية الكريمة التى تدعوالى الأخلاق وتوجه المسلم إلى السلوك الحضاري ، حيث أن الحضارة الحقيقية هى حضارة الإسلام الذى يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر.

ومن المعروف ، الخُلُق الحسن ، يقول رسول الله – صلى الله عليه وسلم – حَسِنْ الخُلُق فى الجنة و سوء الخلق فى النار.

هذه الآية هى قوله – عز وجل – :

﴿ لَّا تَجۡعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيۡنَكُمۡ كَدُعَآءِ بَعۡضِكُم بَعۡضٗاۚ قَدۡ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمۡ لِوَاذٗاۚ فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ أَوۡ يُصِيبَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [سورة النور :٦٣].

والمعنى : لا تدعوا ولا تنادوا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – باسمه كما ينادى بعضكم بعضا باسمه بل قولوا : يا نبي الله ، يا رسول الله ، تعظيماً وتفخيماً لمقامه، وإعظاماً لشأنه ، واعترافاً بمكانته السامية ، ودرجته الشامخة الرفيعة يقول أبو حيان :" لما كان التداعي بالأسماء على عادة البداوة به مثل : يارسول الله يا نبي الله ألا ترى الى بعض جُفاوة منْ أسلم ، فكانوا ينادونه باسمه فيقولون له " يا محمد " فنهوا عن ذلك " قال قتادة – رضي الله عنه – : أمرهم الله تعالى أن يفخموه ويشرفوه .

وهذا توجيه راشد الى السلوك السوي المستقيم ، والخلق الحسن القويم فلا بد من أن تمتلئ القلوب بتوفير وتعظيم رسول الله – صلى الله عليه وسلم – حتى تستشعر توفير وتعظيم كل كلمة تصدر منه ، وكل توجيه يومئ إليه ، ويأمر به ، و

يرغب فيه ، وهى لفتة ضرورية فلابد للمربى من وقار، وللقائد من هيبة و بريق ساطع ، وفارق كبير بين أن يكون هو متواضعاً ليناً هيناً ، وأن ينسوا هم أنه هو مُرَبيهم فيدعوه دعاء بعضهم لبعض فالواجب أن تبقى للمربى منزلةً فى نفوس من يربيهم يرتفع بها عليهم فى قراره شعورهم، ويستحيون هم ان يتجاوزوا معها حدود التعظيم والتوقير والاحترام [1] .

وكذلك في المعنى قوله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَـٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾[سورة الحجرات :٢].

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾[سورة الحجرات :٤].

وقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[سورة الحجرات :١].

ويقول ابن كثير الدمشقي : إن المعنى لا تعتقدوا أن دعاءه على غيره كدعاء غيره من الناس ،فإن دعاءه مستجاب فاحذروا أن يدعو عليكم فتهلكوا ، وهذا خلق راقٍ ، وسلوك حضاري من طرْزٍ رفيع فيوجهنا القرآن الكريم الى وضع كل شخص فى المنزلة التى يستأهلها ويستحقها ، ووصفه فى المكانة اللاَّئقة به ، يقول تعالى :

﴿ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴾[سورة الصافات :١٦٤] [2] .

1- صفوة التفاسير للصابونى جـ٢ ، ص ٣٥١ بتصريف - فى ظلال القرآن بتصرف جـ ٤ ، ص ٥٣٥ وايضا التفسير الكبير جـ١١ ، ص ٦٤٣ ، وما بعدها .
2 - التفسير القرآن الغظيم لابن كثير جـ٣ ، ص ٣٠٧ .

أى منزلةً معروفة ، وانظر الى الأدب الراقي الذى تجلى صورة فى المعراج حيث فارق سيدنا جبريل – عليه السلام – سيدنا محمد – صلى اللّٰه عليه وسلم – فقال له رسولنا الكريم – عليه السلام - : أو فى مثل هذا المكان يترك الخليل خليله؟فقال له سيدنا جبريل – عليه السلام - : لو تقدمت أنا لاحترقت لو تقدمت أنت لكرمت ".

فهذا هو مقامك يا رسول اللّٰه ، فى قربك من اللّٰه ، فسيدنا موسى نادى ربه من فوق جبل الطور ورسولنا ناجاه من فوق بساط النور ، وفرق بعيد بين المناداة والمناجاة فالمناداة تكون عن بُعْد ، والمناجاة تكون عن قُرب ، وجبل الطور غير بساط النور الذى يكون فى الحَضْرَة الإلهية .

ومن بين الأخلاق الكريمة فى القرآن الكريم أن تُنَادى على الشخص بمكانته التى تليق به فلا يصح أن تنادى " الطبيب " بقولك له : " يا مهندس " ولا تنادى المهندس بالطبيب، بل تنادى على كل شخص برتبته التى يستحقها ، وازاله المكانة التى يستأهلها و ذلك خُلُق ما أمرنا به اللّٰه تعالى فى القرآن الكريم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا مِن خلفه تنزيل من حكيم حميد .

وتلك توجيهات ربانية راشدة ، وأخلاق قرآنية حميدة و صدقت السيدة الفضلى " عائشة بنت أبى بكر" – رضي اللّٰه عنها – حين سئلت عن أخلاق رسول اللّٰه – صلى اللّٰه عليه وسلم – فقالت :" كان قرانا يمشى على الأرض " .

ويقول صاحب " الكشاف " فى معنى هذه الآية : " لا تقيسوا دعاءكم إياكم على دعاء بعضكم بعضا و رجوعكم عن المجمع بغير إذن الداعي ، أولا تجعلوا تسميته و نداءه كما يُسَمْى بعضكم بعضا، ويناديه باسمه الذى سماه به

أبواه، ولا تقولوا :"يا محمد" ولكن قولوا : " يا نبي اللّٰه " و " يا رسول اللّٰه " مع التوقير والتعظيم والصوت المخفوض والتواضع [١]و تحتمل "لا تجعلوا دعاء الرسول ربه ، مثل ما يدعو صغيركم كبيركم أو فقيركم غنيكم يسأله حاجةً ، فربما أجابه ، وربما ردة ، ولكن دعوات رسول اللّٰه – صلى اللّٰه عليه وسلم- مسموعة مستجابة .

هذه توجيهات قرآنية كريمة تدعوالى الخلق الحسن والاحترام المتبادل بين الناس والذى يغرس فى نفوسهم المودة والاحترام والتوقير فبذلك يرقى المجتمع الاسلامى ويتقدم فى كل المجالات ، ويعيش المسلمون فى سعادة وهناء .

1- الكشاف للزمخشرى ، جـ ٣ ، ص ٨٦.

" التواضع "

ومن الآيات القرآنية الكريمة التى تتحدث عن الأخلاق وتضرب المثل والقدوة الحسنة ميعاد الرحمن ، فيقول الله – عز وجل - :

﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا ﴾[سورة الفرقان :٦٣].

فانظر إلى المعاني السامية التى تفردت بها هذه الآية حيث أضاف العباد إلى جلالته – سبحانه وتعالى – فقال : وعباد الرحمن .

فالإضافة هنا إضافة تشريف وتعظيم وتوقير ، و يعنى هؤلاء هم العباد الذين يحبهم الله، وهم جديرون بالانتساب إليه وهم الذين يمشون على الأرض فى لين ، وسكينة ووقار لا يضربون الأرض بأقدامهم بطراً ، وصلفا ، وتكبراً و لا يتبخترون فى مشيتهم ، وإذا خاطبهم السفهاء بجفاء وغلظة وقساوة طبع وأنفة وكبرياء ، و شمم وآباء قالوا قولاً حسنا طيبا ينجون بأنفسهم من اقتراف الآثام ، وارتكاب المناكر ، واجتراح السيئات ، وهم قدوة حسنة للمسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها فى التواضع ، والخلق الكريم ، والنجاة من الإثم ، والنأي عن الذنوب .

وبهذا السلوك يَرْقى المجتمع المسلم ، ويتحضر ، ويتقدم ، وينمو ويزدهر ويكون نموذجاً من طُرُزٍ فريد لبقية المجتمعات المسلمة وغير المسلمة فى الخلق والسلوك الحضاري فإن الأمة هى الأخلاق .

فإن كانت الأمة ذات خُلُقْ كانت أُمَةً راقيةً ، مزدهرةً فى جميع المجالات .

وأما إذا انحطت أخلاق الأمة انحطت فى كل شيء وذهبت نضارتها وانطمست حضارتها ، واندثرت معالمها ، وضاع بهاؤها وجمالها ، يقول الشاعر شوقي :

إنما الأمــم الأخــلاق مــا بقيــت   فإن هم ذهبــت أخلاقهــن ذهبــوا

وعباد الرحمن يعنى ليسوا عباداً، أو عبيداً لبيت فلان أو بيت علان إنما هم عُبْاد وعبيُدُ للّه – عز وجل – وهم بهذه الصفات يجزون الغرفة بما صبروا ويلقون فيها تحية وسلاما ، خالدين فيها حسنت مستقراً ومقاما .

إنهم عباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هينين لينين .

ومنه الحديث " أحبب حبيبك هونا ما " ، وقوله أيضا :" المؤمنون هينون لينون " و فى الأمثال:" إذا عز أخوك فهن "ومعناه إذا عاسر فياسر ، والمعنى أنهم يمشون بسكينة ووقار ، وتواضع ، لا يضربون الأرض بإقدامهم أشراً وبطراً ، ولذلك كَرِهَ بعض العلماء الركوب فى الأسواق .

ولقوله إذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما، والمراد بالجهل هو السَفَه و سوء الخُلُق .

يقول الشاعر الجاهلي " عمرو بن كلثوم " :

ألا لا يجهــلن احــد علينــا   فنجهــل فــوق جهــل الجاهلينــا

وَيُروى أن سيدنا " عمر بن الخطاب" – رضي اللّه عنه – انه رأى شاباً يمشى رويداً فقال له سيدنا" عمر بن الخطاب" – رضي اللّه عنه- ما بالك أأنت مريض ؟

فقال : لا يا أمير المؤمنين .

فعلاه " عمر بن الخطاب " – رضي الله عنه- " بالدرة ، وأمره أن يمشى بقوة . وإنما المراد بالهون هنا السكينة والوقار، كما قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – :

" إذا أتيتم الصلاة فلا تأتوها وأنتم تسعون ، واتوها و عليكم السكينة ، فما أدركتم منها فصلوا ، وما فاتكم فأتموا " ويقول " عبد الله بن المبارك " : عن "معمر" عن عمر بن المختار، عن الحسن البصري ، فى قوله "و عباد الرحمن " : " إن المؤمنين قوم ذلت منهم- والله- الأسماع ، والأبصار، والجوارح حتى يحسبهم الجاهل مرضى، وانهم – والله- لأصحاء و لكنهم دخلهم من الخوف ما لم يدخل غيرهم ومنعهم من الدنيا علمهم بالآخرة فقالوا :" الحمد لله الذى أذهب عَنَّا الحزن ،أما والله ما أحزنهم .

ما أحزن الناس ، و لا تعاظم فى نفوسهم شيء طلبوا به الجنة ، ولكن أبكاهم الخوف من النار، انه من لم يَتَعْيز بعزار الله تقطع نفسه على الدنيا حسرات ، ومن لم يُرِ الله نعمة إلا فى مطعم أو مشرب فقد قَلَّ علمه ، وحضر عذابه ، إذا خاض فى حقهم خائض لم يقابلوه بالمثل ، بل يعفون و يصفحون ولا يقابلون إلاَّ خيراً ، كما كان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – لا تزيده شدة الجاهل عليه إلا حُلْماً ، ويقول تعالى :

﴿ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [سورة القصص :٥٥].

وعن النعمان بن مقرن المزني :" قال: قال رسول اللّٰه – صلى اللّٰه عليه وسلم :–

" وسبّ رجل رجلاً عنده فجعل المسبوب يقول :عليك السلام ، فقال رسول اللّٰه – صلى اللّٰه عليه وسلم – :" أما إن ملكاً بينكما يسب عنك كلما شتمك هذا ، قال له بل أنت وأنت أحق به واذا قلت له " و عليك السلام .

قال : لا ، بل عليهم ، وأنت أحق به . و معنى قالوا سلاما ، أى قالوا قولاً سديداً صادقاً ، صحيحاً .

و يقول " **سعيد بن جبير** " : ردوا معروفا من القول ، و قال الحسن البصري : قالوا : "سلام عليكم " معناه أن جَهِلَ عليهم حلموا ، يصاحبون عباد اللّٰه نهارهم بما يسمعون ، ثم ذكر أن ليلهم خير ليل **فقال تعالى** :

﴿ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ ﴾ [سورة الفرقان :٦٤]. أى فى طاعته وعبادته . (١)

ولكن الإسلام يأمر بالإغضاء عن السُفَهَاء ، وترك المقابلة يعنى مقابلة الإساءة بالإساءة مستحسن فى الخُلُقْ والأدب، والمروءة ، والشريعة ، واسلم للعِرْض، وأدْعى للوَرَع والزهد والتقوى . وهذه هى السِمَةُ الأولى من سمات عباد الرحمن ، هى أنهم كما أومأنا إلى ذلك آنفا ، يمشون على الأرض مشية سهلة لينة بمنأى عن

1 - تفسير القرآن العظيم ، جـ ٣ ، ص ٣٢٥.
- التفسير الكبير ، للفخر الرازى ، جـ ١٢ ، ص ٨٤ و ما بعدها
- فى ظلال القرآن الكريم ، للامام الشهيد " سيد قطب " ، جـ٥ ، ص ٢٥٧٦
- الكشاف ، للزمخشرى ، جـ٣ ، ص ١٠٣
- صفوة التفاسير للصابونى جـ ٢ ، ص ٣٦٣ و ما بعدها
- الطبرى ، جـ ١٩ ، ص ٢٠
- التفسير الكبير ، جـ ٢٤ ، ص ١٠٨
- الظلال ، جـ ٥ ص ٢٥٨٠.

الصنعة والتكلف ، بعيدة عن الخيلاء و تصعير الخد ، فمشية الشخص تُعَبْــرُ عن شخصيته و عما يكمن فيها من مشاعر والنفس السوية تخلع صفاتها هذه على مشية صاحبها فيمشى مشية جادة فيها وقار وسكينة ، وليس معنى ذلك أنهم يمشون متماوتين منكسي الرؤوس ، متهاوي البنيات كما يَفْهَم بعض الناس ممن يريدون إظهار الصلاح والتقوى .

وهذا رسول الله – صلى الله عليه وسلم –كان إذا مشى تَكَفأ تكفياً ، وكان أسرع الناس مشيةً وأحسنها ، وأسكنها .

ويقول الصحابي الجليل " أبو هريرة " – رضي اللّه عنه– : " ما رأيت شيئاً أحسن من رسول الله – صلى الله عليه وسلم – كأن الشمس تجرى فى وجهه، و ما رأيت أحدا أسرع فى مشيته من رسول الله – صلى الله عليه وسلم – كأنما الأرض تُطْوى له . وَأِنَّا لنَجُهْد أنفسنا وأنه لغير مكترث .

وقال" على بن أبى طالب " – رضي اللّه عنه : " كان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إذا مشى تكفأ تكفيا ، كأنما ينحط من صبب " وقال مَرةً إذا تقلع – قلت : والتقلع هوالارتفاع من الأرض بجملته كحال المنحط من الصبب ، وهى مشية أولى العزم والهمة والشجاعة ، وهم فى جِــدْهِم ووقارهم وقصدهم إلى ما يشغل نفوسهم من اهتمامات كبيرة لا يتلفتون إلى حماقة الحمقى ، و سفه السفهاء ولا يشغلون بالهم و وقتهم و جهدهم بالاشتباك مع السُفهاء ، وارذل الناس فى جدلٍ وعراك ويترفعون عن المهاترة مع الطائشين واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما ، وليس ذلك عن ضعف . و لكن ذلك عن ترفع واستعلاء لا عن فخر و خيلاء، وصيانةً للوقت فبدلاً من أن يُنْفِق المسلم وقته فى المهاترات والترف والطيش ينفق وقته فيما هو أهم وأنفع ، وأكرم وأرفع ، و هذا ما يليق بالرجل الكريم ، صاحب

الخلق الاسلامى القويم ، هذا نهارهم ، أما ليلهم فكان سجوداً وقياماً وصلاحاً وتقوى ، ومراقبةً لله – عز وجل – والشعور بجلالة الخوف من عذابه . هذا نهارهم مع الناس ، فأما ليلهم فهو مراقبتهم لله وتقواه ، والخوف من عذابه .

﴿ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾ [سورة المؤمنون٦٤ :٦٥] .

والتعبير يبرز من الصلاة " السجود والقيام " وذلك لتصوير حركة عباد الرحمن فى جنح اللَّيل والناس نيام فهؤلاء قوم يبيتون لربهم سُجْداً وقياماً يتوجهون لربهم وحده، ويقومون له وحده ، ويسجدون له وحده فهم مشغولون عن النوم المريح بما هو اروح منه وامتع ، وهو التوجه لربهم يخلد النائم الى الأرض وهم يتطلعون الى عرش الرحمن ، ينام الناس و هم قائمون ساجدون ، وهم فى سجودهم و قيامهم و تطلعهم تمتلئ قلوبهم بالتقوى والخوف من عذاب جهنم يقولون : ﴿ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾ و لم يروا جهنم ، و لم يشاهدوها ، و لكنهم آمنوا بوجودها ، و تخيلوها وتمثلوا صورتها و ذلك مما جاءهم فى القرآن الكريم ، وسنة النبي المطهرة – صلى الله عليه وسلم – فهذا الخوف كان ثمرة الإيمان والتصديق .

والتعبير يوحى كأنما جهنم متعرضة لكل أحد منهم فَاغِرةً فاها تريد ابتلاعهم فتصورهم لها بهذا الوضع أورثهم الخشية والخوف ، والضراعة والتقوى و نرى تعبيرهم يرتعش ، وهم يتضرعون الى ربهم خوفا و فزعا " إن عذابها كان غراما " يعنى ملازماً لا يتحول عن صاحبه ، ولا يفارقه ، والغرام هواشد أنواع العذاب ، فهو ما يجعله مروعاً ومخيفاً .

﴿ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ [سورة المؤمنون :٦٦]

و هل أسوأ من جهنم مكانا يستقر فيه الإنسان ويقيم .

وأين الاستقرار و هى النار ؟ وأين المقام وهو التقلب على اللَّظَى ليل نهار يقول الله تعالى :

﴿ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧) وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [سورة الذاريات ١٧ :١٨]

وقوله – عز وجل :" تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [سورة السجدة :١٦].

قوله تعالى :

﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [سورة الزمر :٩] .

و لهذا قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾ [سورة المؤمنون :٦٥]

يعنى ملازما دائما : كما قال الشاعر :

إن يعذب يكن غراما وأن ... يعطى جزيلا فلا يبالى

ولهذا يقول " الحسن " – رحمه اللهّ :-

كل سيء يصيب ابن آدم ويزول عنه فليس بغرام ، وإنما الغرام هوا الملازم ما دامت السموات والأرض ، و هى بئس المنزل منظرا وبئس المقيل مقاما .

وعن " ملك بن الحارس " إنه قال : إذا طرح الرجل فى النار هوى فيها فإذا انتهى إلى بعض أبوابها قيل له :" و مكانك حتى تتحفّ ، قال :" فيسقى كأساً من سم الأساود والعقارب فيتميز الجلد على حِدَه والشعر على حدة ، والعصب على حدة والعروق على حده .

و عن **" مجاهد بن عبيد بن عمير" انه قال :** " إن فى النار لخبايا فيها حيات أمثال البخ وعقارب أمثال البغال الدهم ، فإذا قَذَفْتَ بهم فى النار خرجت إليهم من أوطانها . فأخذت بشفاههم وأبصارهم ، وأشعارهم فكشطت لحومهم إلى أقدامهم ، فإذا وجدت حَرّ النار رجعت .

وعن " أنس بن مالك " – رضي الله عنه – عن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال: " أن عبدا فى جهنم لينادى ألف سنة " يا حنان يا منان ، فيقول الله – عز وجل – لجبريل :" اذهب فأتني بعبدي هذا ، فينطلق " جبريل " فيجد أهل النار مكبين يبكون فيرجع إلى ربه – عز وجل – فيخبره ، **فيقول الله – عز وجل - :**" أئتنى به فإنه فى مكان كذا وكذا فيجئ فيوقفه على ربه – عز وجل – فيقول له :" يا عبدي كيف وجدت مكانك و مقيلك ؟ فيقول : يا رب : شر مكان و شر مقيل ، فيقول الله – عز وجل - :" ردّوا عبدي " ، فيقول :" يارب ما كنت أرجوا اذا اخرجتنى منها أن تردني فيها " ، فيقول الله – عز وجل – " دعوا عبدي .

ومن صفاتهم وأخلاقهم قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾ [سورة الفرقان :٦٧] .

هذا الوصف الخامس من أوصاف عباد الرحمن والمعنى " ليسوا مُبَذرين فى إنفاقهم فى مطعمهم و مشربهم ، وملبسهم ، ولا مقصرين ومضيقين بحيث يصبحون بُخَلاء " ، " وكان بين ذلك قواما " أى وكان إنفاقهم وسطا ، معتدلاً بين الإسراف والتقطير مثل قول الله – عز وجل:-

﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾

[سورة الأسراء :٢٩]

ويقول " مجاهد " – رضي الله عنه :-

" لو أَنْفَقْتَ مثل جبل قبيس ذهباً فى طاعة الله ما كان سرفاً ، ولو أَنْفَقْتَ صاعاً فى معصية الله كان سرفاً " .

وهم مع توافر هذه الصفات فيهم لا يدعون مع الله إلهاً آخر ، بل أنهم يوحدونه مخلصين له الدين ولا يقتلون النفس التى حرم الله قتلها إلا بما يحق أن

تقتل به النفوس من كفر بعد إيمان ، أو زنا مع إحصان ، أوالقتل قصاصاً لا يرتكبون جريمة الزنا التى هى من أفحش الجرائم ، ومن يقترف تلك الموبقات العظيمة من الشرك ، والقتل ، والزنا يجد فى الآخرة النكال والعقوبة ويخلد فيه مُهاًنا " يعنى يضاعف عقابه بسبب الشرك والمعاصي ، ويخلد فى ذلك العذاب ذليلاً حقيراً ، إلاَّ من تاب فى الدنيا التوبةَ النصوح وأحسن عملا ، فأولئك يكرمهم الله فى الآخرة فيجعل مكان سيئاتهم حسنات ، وفى الحديث " أنى لأعلم أهل الجنة دخولاً الجنة ، وآخر أهل النار خروجاً منها ، رجل يؤتى به يوم القيامة فيقال :" اعرضوا عليه صغار ذنوبه ، فيقال له " عملت كذا و كذا وكذا و كذا فيقول : نعم لا يستطيع أن ينكر وهو مشفق من كبار ذنوبه ، فيقول له :" فان لك مكان كل سيئة حسنة ، فيقول : يارب قد عملت أشياء لا أراها هنا ، قال : فضحك رسول الله – صلى الله عليه وسلم – حتى بَدَتْ نواجزه " [1] .

﴿ ...... وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [سورة الفرقان : ٧٠]

أى واسع المغفرة ، كثير الرحمة ، من تاب عن المعاصي ، واصلح سيرته فمن الله يقبل توبته و يكون عند الله مرضيا .

ومن سِمَات " عباد الرحمن " ومن أخلاقهم الإسلامية أنهم لا يشهدون الزور وعدم شهادة الزور قد تكون على ظاهر اللّفظ و معناه القريب ، إنهم لا يؤدون شهادة الزور لما فى ذلك من تضييع الحقوق والإعانة على الظُلّم .

وقد يكون معناها " الفرار من مجرد الوجود فى مجلس أو مجال يقع فيه الزور بكل صنوفه وألوانه ، تَرَفعاً منهم عن شهود مثل هذه المجالس وتلك المجالات .

---

1 - اخرجه مسلم .

وهو أبْلَغُ وأوقع ، وهم كذلك يصونون أنفسهم ، واهتماماتهم عن اللَّغو والهذر و ليس لديه من الفراغ والبطالة ما يدفعه إلى الشغل باللهو الفارغ ، وهو من عقيدته ومن دعوته و من تكاليفها فى نفسه ، وفى الحياة كلها فى شغل شاغل .

وقال تعالى :

﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا﴾

[سورة الفرقان :٧٢]

ذلك هو خلق المسلم لأن شهادة الزور يترتب عليها إضاعة حقوق الناس ، واشاعة للباطل و تزيف للحقائق ، وإهدار لأموال المسلمين .

ويقول رسول الله – صلى الله عليه وسلم – :" عن أبى بكرة قال: قال – صلى الله عليه وسلم – ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ ، ثلاثة – قلنا : بلى يا رسول الله قال : الشرك بالله وعقوق الوالدين ، وكان مُتَكئاً فجلس فقال : أَلاَ وقول الزور ألا وشهادة الزور، فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت [1].

والظاهر من السياق أن المراد لا يحضرونه ، و **لهذا قال تعالى** :

﴿...ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا ﴿٧٢﴾﴾ [سورة الفرقان :٧٢] .

يعنى لا يحضرون الزور، وإذا اتفق مرورهم به مرواً ولم يتدلسوا منه بشيء ، ولهذا قال: " مروا كراما " و من أخلاقهم عباد الرحمن وهم المؤمنون حقاً ، أصحاب الخلق الرفيع ، والأدب العالي والزور الذى هو من حِلْيَة المؤمن ما ذكره القرآن من أخلاقهم **فى قوله تعالى** :

﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾ [سورة الفرقان :٧٣]

1- صحيح أخرجه البخاري.

وهى من أخلاق المسلم الذى إذا ذكر الله وجل قلبه وإذا ما سمع القرآن زادته آياته إيمانا ، يقول الله – عزوجل : ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [سورة الأنفال :٢] .

وذلك بخلاف الكافر الذى لا يؤثر فيه سماع كلام الله – عز وجل – بل يستمر فى غِيّهُ ، وظل سائراً فى كفره وضلاله .

يقول " مجاهد " – رضي الله عنه – لقوله تعالى :

﴿ لَمۡ يَخِرُّواْ عَلَيۡهَا صُمّٗا وَعُمۡيَانٗا ﴾

يعنى يسمعوا ، ولم يبصروا ولم يفقهوا شيئا .

ويقول " الحسن البصري " – رحمه الله تعالى – " كم من رجل يقرؤها ويخر عليها أصم وأعمى " ، **و يقول** : والآية يتماهما :

﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ....﴾ [سورة الأنفال :٢] .

يقول قتادة – رضي الله عنه – أن " والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عنها صما و عميانا " يقول : لم يصموا عن الحق ولم يعموا فيه ، فهم والله قوم قد عقلوا الحق وانتفعوا بما سمعوا من كتابه .

وأخيراً ، فإن عباد الرحمن لا يكفيهم أنهم يبيتون لربهم سجداً وقياماً وأنهم يتسمون بتلك السمات العظيمة كلها بل يرحبون أن تعقبهم ذرية تسير على نهجهم ، وان تكون لهم أزواج من نوعهم ، فتقربهم عيونهم ، و تطمئن بهم قلوبهم ، ويتضاعف بهم عدد "عباد الرحمن " و يرجون أن يجعل الله منهم قدوة طيبة للذين يتقون الله و يخافونه .

﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾

[سورة الفرقان :٧٤] .

و هذا هو الشعور الفطري الايمانى العميق ، شعور الرغبة فى مضاعفة السالكين فى الدرب إلى الله ، و فى أوله الذرية والأزواج ، فهم أقرب الناس تبعة وهم أول أمانة يسأل عنها الرجال ، والرغبة كذلك فى أن يحس المؤمن أنه قدوة للخير، يأتم به الراغبون فى الله ، وليس فى هذه من أمرة ، ولا استعلاء ، فالركب كله فى الطريق الى الله تعالى .

وَسُئِلَ " الحسن البصري" – رحمه الله تعالى – عن هذه الآية فقال :

أن يرى الله العبد المسلم من زوجه و من أخيه ، ومن حميمة طاعة الله لا ، والله لا شيء اقر لعين المسلم من أن يرى ولدا ، أو ولِدْ ولد ، أواخا ، أو حميما مطيعا لله – عز وجل - ، وقيل أنهم يسألون الله لأزواجهم واولادهم الهداية للإسلام .

وعن عبد الرحمن بن جبير بن نفير، عن أبيه قال: جلسنا إلى المقداد بن الأسود يوماً، فمر به رجل فقال : طُوُبى لهاتين العينين اللَّتَين رأتا رسول الله صلى الله عليه وسلم! لوددنا أنا رأينا ما رأيت وشهدنا ما شهدت.

فاستغضب، فجعلت أعجبُ، ما قال إلا خيراً! ثم أقبل إليه فقال: ما يحمل الرجل على أن يتمنى مَحْضَراً غيبه الله عنه، لا يدري لو شهده كيف كان يكون فيه؟ والله لقد حضر رسول الله صلى الله عليه وسلم أقوام أكبَّهم الله على مناخرهم في جهنم، لم يجيبوه ولم يصدقوه، أو لا تحمدون الله إذ أخرجكم لا تعرفون إلاَّ ربكم مصدقين لما جاء به نبيكم، قد كُفيتم البلاء بغيركم؟ لقد بعث الله النبي صلى الله عليه وسلم على أشد حال بعثت عليها نبياً من الأنبياء في فترة من

جاهلية، ما يرون أن ديننا أفضل من عبادة الأوثان. فجاء بِفُرقان فَرَقَ به بين الحق والباطل، وفَرَقَ بين الوالد وولده، حتى إن كان الرجل ليرى والده وولده أواخاه كافراً، وقد فتح الله قُفْل قلبه للإيمان، يعلم أنه إن هلك دخل النار، فلا تُقَر ْ عينه وهو يعلم أن حبيبه في النار، وإنها التي قال الله تعالى: ﴿ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ [سورة الفرقان :٧٤].

قال ابن عباس، والحسن، وقتادة، والسعدي، والربيع بن أنس: أئمة يُقْتَدي بنا في الخير.

وقال غيرهم: هداة مهتدين" ودعاة " إلى الخير، فأحبوا أن تكون عبادتهم متصلة بعبادة أولادهم وذرياتهم وأن يكون هداهم متعدياً إلى غيرهم بالنفع، وذلك أكثر ثواباً وأحسن مآباً؛ ولهذا ورد في صحيح مسلم، عن أبي هريرة رضي الله عنه **قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:** "إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلاّ من ثلاث: ولد صالح يدعو له أو علم ينتفع به من بعده، أو صدقة جارية" .

أولئك المتصفون بهذه الصفات الخلقية يُجْزون يوم القيامة بالجنة وسميت بالغرفة لارتفاعها ، ويلقون فيها تحيةً و سلاما .

يعنى يبتدأون بالتحية والإكرام ويلقون الاحترام والتوقير والتعظيم فلهم السلام وعليهم السلام ، فان الملائكة يدخلون عليهم من كل باب " سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار " .

وجاء التعبير " بالغرفة " لأنها أكرم من " البهو " وذلك فيما اعتاده الناس فى دنياهم ، عندما يستقبلون الأضياف ، فإنما يستقبلونهم فى البهو أما الغرفة الداخلية فتكون خاصة بأهلها . فأولئك الذين سبقت صفاتهم يستقبلون فى الغرفة

بالتحية والسلام جزاء صبرهم على شهوات النفس ، ومغريات الحياة ودوافع السقوط فى الرذيلة والاستقامة جهد جهيد لا يناله إلاَّ الصابرون ، وأولوا العزم . زينكم الصبر الذى يستحق أن يذكره الله تعالى فى القرآن الكريم .

وفى مقابل " جهنم " التى يتضرعون إلى ربهم أن يصرفها عنهم لأنها ساءت مستقراً ومقاما ، يجزيهم الله الجنة خالدين فيها حسنت مستقراً ومقاماً فلا مخرج لهم منها الا أن يشاء الله ، وهم فيها على خير حال من الاستقرار والمقام . أجل : إنهم عباد الرحمن تلك الخلاصة الصافية للبشرية والقدوة الحسنة للناس أجمعين ، اللَّهُم أهدنا بهداهم ، ووفقنا للسير على طريقهم ، والنسج على منوالهم ...... آمين .

و قد ندب الله – عز وجل – نبيه – صلى الله عليه وسلم – الى الصفح والعفو وذلك بقوله تعالى : ﴿..... فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ ﴾ [سورة الحجر :٨٥] .

وقد قيل : هوالرضا الذى لا عتاب فيه ، وقال تعالى :

﴿ خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴾ [سورة الأعراف :١٩٩] .

وقال تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [سورة آل عمران :١٣٤] .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴾ [سورة الشورى :٤٣]

وقوله تعالى : ﴿ لَتُبۡلَوُنَّ فِيٓ أَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ وَلَتَسۡمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ أَذٗى كَثِيرٗاۚ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴾ [سورة آل عمران :١٨٦] .

عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم- « رأيت قصوراً مشرفة على الجنة فقلت يا جبريل لمن هذه؟ ، قال : للكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين ».

وقال" معاذ بن جبل " :" لَمْاَ بعثني النبي إلى اليمن قال ما زال يوصيني بالعفو فلولا علمني بالله لظننت أنه يوصيني بترك الحدود " .

وقال " الحسن بن أبى الحسن " :" إذا كان يوم القيامة نادى منادياً .

من كان له على الله اجر فليقم ، فلا يقوم الا العافون عن الناس ، ثم تلى قوله – عز وجل:-

﴿ ....فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [سورة الشورى :٤٠] .

وقال عَلِيّ – كرم الله وجهه – " أَوْلَى الناس بالعفو، أقدرهم على العفو به .

وكان المأمون – رحمه الله تعالى – يحب العفو ويؤثره و يقول : لقد حبب إلى العفو حتى أنى أخاف أن أُثاب عليه .

و كان يقول : لو عَلِمَ أهل الجرائم لَذْتَي فى العفو لارتكبوها ، وقال : لو علم الناس حبي للعفو لما تقربوا إلى الا بالجنايات .

وقال عَلِىّ – كرم الله وجهه- :" إذا قدرت على عدوك فاجعل العفو عنه شكرا للقدرة عليه ، و كان " الأحنف – رحمه الله – **يقول** :

" ما اذانى أحد إلاَّ أخذت فى أمره بإحدى ثلاث : إن كان فوقى عرفت له فضله وان كان مثلى تفضلت عليه ، وإن كان دوني أكرمت نفسي عنه .

و كان يقول :" وجدت الاحتمال صفة من الرجال ومن عادة الكريم إذا قدر غفر وقالت العرب : سؤدد مع الانتقام ، والذى يجب على العاقل إذا أمكنه الله

تعالى أن لا يجعل العقوبة شيمته ، وإن كان لا يريد من الانتقام فليرفق فى انتقامه إلاَّ أن يكون حداً من حدود اللّه تعالى .

ويقول الشاعر :

فهبني مسيئا كالذي قلت ظالما فعفواً جميلاً كي يكون لك الفضل

فان لم أكن للعفو منك لسوء ما أتيت به أهلا فأنت له أهل([1])

وكان " معاوية – رضي اللّه عنه- " يُعْرَف بالحلم .

وقيل إنه كان " لعبد اللّه بن الزبير " – رضي اللّه عنهما – أرضاً ، و كان له فيها عبيداً يعملون فيها وإلى جانبها أرض " لمعاوية " وفيها عبيد يعملون فيها فدخل عَبِيدُ " معاوية " فى أرض " عبد اللّه بن الزبير " فكتب عبد اللّه بن الزبير " كتاباً " لمعاوية بن أبى سفيان " أما بعد : يا " معاوية" إن عبيدك قد دخلوا فى أرضى ،فَانْهِهِم عن ذلك ، وإلا كان لي ولك شأن ، والسلام .

فلما وقف " معاوية " على كتابه ، وقرأه دَفَعَهُ الى ولده " يزيد بن معاوية "فلما قرأه قال له " معاوية " : يا بني ما ترى ؟ .

قال " يزيد بن معاوية " : أرى أن تبعث إليه جيشاً يكون أوله عنده وأخره عندك يأتوك برأسه .

فقال " معاوية" لابنه : يا بني : ثم أخذ ورقةً وكتب فيها رداً على كتاب" عبد اللّه بن الزبير" – رضي اللّه عنه – يقول له فيه : أما بعد فقد وقفت على كتاب ولد حواري رسول اللّه - صلى اللّه عليه وسلم – وساءني ما ساءه والدنيا بأسرها هينة عندي فى جنب رضاه ، تنازلت عن أرضى فأضفها إلى أرضك بما فيها من العبيد والأموال ، والسلام ، فلما وقف " عبد اللّه بن الزبير " – رضي اللّه عنه - على

1- المستطرف للابشيهى ص ٣٠٠ و ما بعدها .

كتاب " معاوية بن أبى سفيان " – رضي اللّه عنه – كتب إليه :" قد وقفت على كتاب أمير المؤمنين أطال اللّه بقاءه ، ولا أعدمه الرأي الذى أحله من قريش هذا المحل ، والسلام .

فلما وقف " معاوية " على كتاب " عبد اللّه بن الزبير " – رضي اللّه عنهم أجمعين- و قرأه رماه الى ابنه " يزيد بن معاوية " فلما قرأه " يزيد " تهلل وجهه واسفر فقال له أبوه :" يا بني من عَفاَ ساد ، ومن حَلِمِ عَظَمُ ، ومن تجاوز استمال إليه القلوب ، إذا ابتليت بشيء من هذه الأدواء فداوه بمثل هذا الدواء .

وغضب " الرشيد " على " حميد الطوسي "، فدعا له بالرمح والسيف فبكى فقال له: ما يبكيك؟ فقال: واللّه يا أمير المؤمنين ما أفزع من الموت لأنه لا بدّ منه وإنما بكيت أسفاً على خروجي من الدنيا، وأمير المؤمنين ساخط عَلَيَّ، فضحك وَعَفى عنه، وقال: إن الكريم إذا خَادَعْتَهُ انخدع. (١)

و يقول الشاعر :

أنا المذنب الخطاء والعفو واسع ولو لم يكن ذنب لما عرف العفو

واغتاظ " عبد الملك بن مروان " من رجل . فقال: " واللّه لئن امكننى اللّه منه لافعلن له كذا و كذا ، فلما صار بين يديه قال له : " رجاء بن حيوه " : يا أمير المؤمنين : قد صنع اللّه ما أحببت ، فاصنع ما أحب اللّه ، فعفا عنه ، وأمر له بِصلةِ قُربى .

ويقول الحسن البصرى رضى اللّه عنه : أن أفضل رداء تردى به الإنسان ، الحلم وقيل الحليم عليم والسفيه كليم . (٢)

1 - المستطرف ، ص ٣٠٣ و ما بعدها .
2- ذاته ، ص ٣٠٩ .

" الوفاء فى المكاييل "

ومن الأخلاق التى وجهنا إليها القرآن الكريم ، والتى يسعد بها الناس فى حياتهم وبها يرقى المجتمع الاسلامى ، ويعيش فى أمن وأمان حقيقيين وهناءة ، و رغد فى المعيشة كما ترشدنا الى السلوك القويم ، ذلكم التوجيه الرباني الكامن فى قوله – عز وجل – :﴿ أَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُخۡسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِ ﴾

[سورة الشعراء١٨١ : ١٨٢] .

هذه قصة سيدنا " شعيب " – عليه السلام – ومكانها التاريخي قبل قصة سيدنا " موسى " – عليه السلام – تجيء هنا فى مساق العبرة كبقية القصص فى هذه السورة . وقد بدأهم " شعيب " – عليه السلام – وبما بدأ به كل رسول قومه .

من أصل العقيدة والتعفف عن الأجر ، ثم أخذ يواجههم بما هو من خاصة شأنهم وقد كان شأنهم أن يطففوا فى الميزان والمكيال وأن يأخذوا قسراً ، قهراً وعنوةً ، وبالغصب زيادة عن حقوقهم ، ويعطوا أقل من حق الناس ، ويشتروا بثمن بخس ، ويبيعوا بثمن مرتفع . ويبدوانهم كانوا فى ممر قوافل التجارة ، فكانوا يتحكمون فيها .

وقد أمرهم رسولهم بالعدل ، والقسط فى هذا كله ، لأن العقيدة الصحيحة يتبعها حُسْنُ معاملة ، ولا تستطيع أن تغض عن الحق والعدل فى معاملات الناس ، وأمرهم سيدنا " شعيب " – عليه السلام – أن يزنوا بالميزان العدل السَوِي وألاَّ ينقصوا حقوق الناس بأية طريقة كانت هذه الطريقة بهضم الحقوق أوالغصب وو الأخذ قسراً و قهراً أوالغبن والغش ونحو ذلك فيأمرهم – عليه السلام – بإيفاء الكيل والميزان ، وينهاهم عن التطفيف فيها ، فقال لهم ولا تبخسوا الكيل فتعطوه ناقصاً ، وتأخذوه تاماً لأنفسكم .

ووافياً إذا كان الكيل لكم ، ولكن خذوا كما تعطون ، وأعطوا كما تأخذون والمراد بالقسطاس الميزان قيل هو " القبان " وهو معرب من الرومية كما قال بعضهم ، ويقول

"مجاهد " – رضي الله عنه – القسطاس هو العدل باللّغة الرومية ، ويقول " قتادة " – رضي الله عنه – القسطاس هوالعدل ، ولا تُنْقِصوهم أموالهم .

وهو المراد بقوله تعالى:

﴿ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ [سورة الشعراء :١٨٣].

هذا هوالخلق القرآني الكريم فى المعاملات خاصة الكيل والميزان حيث أمر الله بالعدل فيهما ، وعدم الغُبْن ، والظلم ، والغش ، والغصب ، فهذه أمور تنقص إيمان المؤمن وتهدد كرامته لأنها سَرِقَة بكل المعاني ، واستيلاءً على حقوق الغير بطريق غير مشروع ، وقد نهى الإسلام عنه فى القرآن الكريم ، و هى توجيهات ربانية إذا ما تحلى بها المسلم كان خلوقا بأن يكون مسلما صادقاً ومؤمناً صدوقاً يقول الله تعالى : ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ ﴾ [سورة المطففين١ :٥] .

" بر الوالدين "

ومن الأخلاق القرآنية الكريمة ، والتى تأمر ببر الوالدين ، والإحسان إليهما ورعاية حقوقهما **قول الحق سبحانه** :

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَـٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [سورة العنكبوت :٨] .

وهذا أمر من الله – عز وجل- وهو امر مؤكد بالإحسان الى الوالدين ، غاية الإحسان ، لأنهما سبب وجوده ، ولهما غاية الفضل والإحسان ، الوالد بالإنفاق والوالدة بالإشفاق ، **يقول الصاوي** :" وإنما أمر الله الأولاد ببر الوالدين دون أن يأمر الوالدين ببر الأولاد ، لأن الأولاد جُبِلوا على القسوة وعدم طاعة الوالدين ، فكلفهم الله بما يخالف طبعهم أما الآباء فهم مجبولون على الرحمة والعطف والشفقة ، والخوف على الأولاد فوكلهم لما جبلوا عليه ، وان يبذلا كل ما فى وسعهما يعنى الوالدين ، و حرصا كل الحرص على تشرك بالله ، و تكفر به لا يصح أن يكون إلهاً و لا يستقيم ، فلا تُطِعُهما فى ذلك حيث إنه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ، والى مرجع الخلائق جميعا مؤمنهم وكافرهم ، بَرّهُم وفأجرهم فأجازى كلا بما عمل، وفيه وَعْد حَسِن لمن بَرَّ والديه واتبع الهدى وأيضاً غَيداً لمن عَقَّ والديه واتبع سبيل الردى .

فإن الوالدين لهم فضل كبير، كما أن لهم رحما ، **وان لهما واجبا مفروضا** : واجب الحب والكرامة والاحترام والكفالة ، و لكن ليس لهما من طاعة فى حق الله و هذا هوالصيراط .

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَـٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [سورة العنكبوت :٨] .

إن الصلة فى الله هى الصلة الأولى ، والرابطة فى الله هى العروة الوثقى فان كان الوالدين مشركين فلهما الإحسان ، والرعاية ، لا الطاعة و لا الاتباع ، وان هى إلاَّ الحياة الدنيا ثم يعود الجميع الى الله و يفصل ما بين المؤمنين والمشركين فإذا المؤمنون أهل ورفاق ولو لم يَعُد بينهم نسب ولا صهر.

يقول الله – عز وجل – : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [سورة العنكبوت :٩] .

وهكذا يعود الموصولون بالله جماعة واحدة ، كما هم فى الحقيقة ، وتذهب روابط الدم والقرابة والنسب والمصاهرة ، و تنتهي بانتهاء الحياة الدنيا فهى روابط عارضة وليست أصلية و ذلك لانقطاعها عن العروة الوثقى التى لا انفصام لها ، ويروى لنا الترمزى عند تفسير هذه الآية أنها نزلت فى " سعد بن أبى وقاص " – رضي الله عنه- وأمه " حمنة بنت أبى سفيان " وكان باراً بأُمِه ، فقالت له :" ما هذا الدِّين الذى أحدثت ؟ والله لا آكل ولا أشرب حتى ترجع إلى ما كنت عليه أوا موت ، فتتعَيّرَ بذلك أبد الدهر ، ويقال لك:

يا قاتل أمك .

ثم أنها مكثت يوما و ليلة لم تأكل ، ولم تشرب فجاء " سعد " إليها .

وقال : يا أُماه لو كان لك مائة نفس وخرجت نفسا نفسا ما تركت ديني فكلى إن شئت وان شئت فلا تأكلى ، فلما يأيست منه أكلت و شربت .

فانزل الله هذه الآية أمرا بالبر ، والإحسان إليهما وعدم طاعتهما فى الشرك و هكذا ينتصر الإيمان على فتنة القرابة والرحم ، واستبقى الإحسان والبر ، وإن المؤمنين لعرضه لمثل هذه الفتنة فى كل آن ، فليكن بيان الله وفعل " سعد ابن أبى وقاص " – رضي الله عنه- غايةً للنجاة والأمان ومَسْلَكاً قوياً وطريقاً صحيحاً ، ومنجاة للمؤمنين فى الدنيا والآخرة .

ويقول الله- عزوجل – فى سورة الإسراء :- ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴾

[سورة الإسراء٢٣ :٢٤].

ويقول الله – عز وجل- : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴾ [سورة الرعد :٢١]

عن أبى عبد الرحمن عبد الله بن مسعود – رضي الله عنه- قال :" سألت النبي – صلى الله عليه وسلم – أى العمل أحب إلى الله تعالى ؟

قال :" الصلاة على وقتها "، قلت: ثم أى ؟ ، قال :" بر الوالدين " ، قلت : ثم أى؟ قال : " الجهاد فى سبيل الله[١].

وعن أبى هريرة – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم:
" لا يجزى ولد والدا إلاَّ أن يجده مملوكا ، فيشتريه ثم يعتقه " [٢].

و عنه أيضا – رضي الله عنه – أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال :
" من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الأخر فليصل رحمه ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت " (٣) .

وعنه –رضي الله عنه – قال: جاء رجل الى رسول الله – صلى الله عليه وسلم:- فقال : يا رسول الله من أحق الناس بحسن صحابتي ؟

قال : أمك . قال : ثم أى ؟ .

---

1 - متفق عليه.
2 - رواه مسلم .
- صفوة التفاسير ، جـ ٢ ، ص ٢٩ و ما بعدها .
- الكشاف للزمخشرى .
- فى ظلال القرآن الكريم ، جـ ٥ ، ص ٢٧٢٢ و ما بعدها.
3 - متفق عليه .

قال : أمك .   قال : ثم أى ؟.

قال : أمك .   قال : ثم أى ؟ قال : أبوك .[1]

وفى رواية أُخرى يا رسول الله : مَنْ أحق الناس بحسن الصحبة ؟

قال : أمك . ثم أمك ، ثم أمك ، ثم أبوك ، ثم أدناك ، أدناك . والصحابة بمعنى الصُحبةَ .

وعنه عن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال :" رغم أنف ، ثم رغم أنف ثم رغم أنف ، من أدرك أبويه عند الكبر ، إحداهما أو كليهما فلم يدخل الجنة . [٢]

ومعنى رغم أنف هو كناية عن الذل ، كأن انفه لصق بالتراب هواناً .

وعن أنس – رضي الله عنه- أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال :" من أحب أن يُبْسَطَ له فى رزقه ، و ينسأ له فى أثره ، فليصل رحمه . [٣]

ومعنى " و ينسأ له فى أثره " أى يؤخر له فى أجله و عمره .

ومن الأخلاق القرآنية الكريمة التى توجه المسلم والإنسانية بعامة إلى حسن الخلق مع الوالدين خاصةً حال الكبر حيث يكون الأب والأم فى مسيس الحاجة إلى العناية والرعاية ، والحدب عليهما ، والعطف والرفق ، وحسن المعاملة ، فهى توجيهات ربانية سُجِلَتْ فى آيات قرآنية كريمة إرشادا ، وتوعيةً وتوجيهاً إلى أن تقوم الساعة ، **فيقول الله تعالى** : ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى

1- متفق عليه
2- رواه مسلم .
3- متفق عليه .

صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ [سورة لقمان١٢ :١٩]

ويقول الإمام القرطبي :" وفى الآية تعريف قبح رفع الصوت فى المخاطبة والملاحقة ، والملاحقة هى الملاومة والمباغضة ، ويكون ذلك بقبح أصوات الحمير ، لأنها عالية .

وفى الصحيح عن النبي – صلى الله عليه وسلم – أنه قال :" إذا سمعتم نهيق الحمير فتعوذوا بالله من الشيطان ، فإنها رأت شيطانا " . ورُوِيّ :"أنه ما صاح حمار، ولا نبح كلب إلاَّ أن يرى شيطاناً " .

قال سفيان الثوري– رحمه الله – :

" صياح كل شيء تسبيح ، إلاَّ نَهِيق الحِمَار.

و قال " عطاء " رحمه الله تعالى – " نهيق الحمير دعاء على الظلم " . (١)

و هذه الآية تعد من الأدب العالي أدب من الله تعالى بترك الصياح فى وجوه الناس تهاوناً بهم ، أو بترك الصياح جملةً ، وكانت العرب تفخر بجهارة الصوت الجهير ، وغير ذلك ، فمن كان منهم أشد صوتاً ، كان أعزَ. ومن كان أخفض صوتاً كان أَذَل ، حتى أن **شاعرهم يقول :**

جهير الكلام جهير العطانس جهر — جهير الرواد جهير النعم
ويعدو على الاين عدوى الظليم — و يعلوا الرجال بخلق علم

1 - تفسير القرطبى ، جـ ٨ ، ص ٥١٥٤ ط دار الريان للتراث بالقاهرة .

فنهى – اللّه وتعالى – عن هذه الأخلاق الجاهلية يقول تعالى : ﴿ ....إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴾ يعنى لوان شيئاً يهاب ، يخشى لصوته لكان الحمار أولى بتلك الخشية ، وذلك الخوف فجعلهم فى المِثْلِ سواءً .

وقوله تعالى " لصوت الحمير " واللاَّم هنا للتوكيد ، ووحد الصوت وإن كان مضافاً إلى الجماعة لأنه مصدر ، والمصدر يدل على الكثرة وهو مصدر " صات يصوت صوتاً فهو صائت ".

ويقال صَوْتَ ، تصويتاً فهو مصوت ، ورجل " صَاَتَ " أى شديد الصوت بمعنى صائت ، كقولهم " رجل " مال ، ونال " أى كثيرا المال والنوال .(١)

إنها لعظة غير مهمة فما يريد الوالد لولده إلاَّ الخير ، وهاهو ذا"لقمان الحكيم" يُنْهِ ابنه عن الشرك ، و يعلل لذلك بقوله تعالى " إن الشرك لظلم عظيم "و يؤكد هذه الحقيقة مرتين . مرة بتقديم النهى وفصل عِلَتَه ، والثانية والنصيحة من الوالد لوده مَبْرَأة من كل شبهة ، وفى ظل نصيحة الأب لإبنه يعرض للعلاقة بين الوالدين والأولاد فى أسلوب رقيق ومع هذا فإن رابطة العقيدة مقدمة على كل العلاقات و توصية الولد بالوالدين مذكورة فى القرآن الكريم ، والسنة المطهرة ، ولم ترد توصية الوالدين بالولد إلا قليلا ، و جلها ومعظمها فى حالة " الوأد " و هى حالة خاصة ، حيث إن الفطرة تتكفل وحدها برعاية الوليد من والديه ، وذلك لضمان امتداد الحياة ، فهما يبذلان من عمرهما ، وكدهما ، وتعبهما ما يكون سبباً فى إسعاد الأولاد ، يتجلى ذلك فى قول الحق سبحانه وتعالى:

﴿...حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا ...﴾ [سورة لقمان:١٤]

أما الأولاد فهم فى حاجة الى توصية الأولاد بالوالدين، وذلك ليلتفت الأولاد الى ذلك الجيل المُضَحى فى سبيل إسعاد الأولاد والذى سكب عصارة عمره وروحه واعصابه لذلك الجيل المتقبل للحياة ، ولا يستطيع الأبناء مكافأة الوالدين على ما بذلاه من غالٍ ومرتخص فى سبيل الأبناء ولو ضحى هؤلاء الأبناء بالعمر نفسه .

---

1 - ذاته .

ويَرْوِى لنا " الحافظ أبو بكر البذار " فى مسنده – بإسناده – عن يزيد عن أبيه إن رجلا كان فى الطواف حاملاً أمه يطوف بها ، فسأل النبي – صلى الله عليه وسلم – هل أديت حقها ، قال : لا ، ولا بزفرة واحدة " . يعنى بزفرة فى حمل ولا فى وضع ، وهى تحمله وَهْناً على وهن يعنى ضعفاً على ضعف .

ثم نرى القرآن الكريم يرتب الواجبات فيجيء شكر الوالدين " أن اشكر لى ولوالديك "، و يربط بهذه الحقيقة حقيقة الوصية الأخرى " الى المصير " حيث ينفع رصيد الشكر المذكور ، ولكن رابطة الوالدين بالوليد إنما تأتى فى ترتيبها بعد وشائج العقيدة فبقية الوصية قوله تعالى :

﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ﴾ [سورة العنكبوت :٨]

فهنا يسقط واجب الطاعة حيث لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ، وتعلو وشيجة العقيدة بيد أن الاختلاف فى العقيدة لا يسقط حق الوالدين فى المعاملة الطيبة والصحبة الكريمة ، والطاعة والإحسان والبر بها ، " و صاحبهما فى الدنيا معروفا " وَرُوِىّ أن هذه الآية وآية العنكبوت ، وآية الاحقاف نزلت فى " سعد بن أبى مالك " .

ثم تجيء الوصية الأخرى لتقرر القضية الأخرى ، وما فيها من حساب وجزاء عادل ﴿ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ [سورة لقمان :١٦].

وهو اللَّطيف الخبير بخفايا الغيوب ، ثم تأتى الوصية الأخرى فى قوله تعالى :

﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ ﴾ [سورة لقمان :١٩] .

وهذا هو طريق العقيدة وهو توحيد الله ، ثم الصبر على ما يصيب الداعية إلى الله و من الابتلاءات فى المال والنفس " إن ذلك من عزم الأمور " و هنا يقطع الله – عز وجل – الطريق على المترددين بعد المضي فى الطريق بعزم و تصميم .

و بمعنى القرآن أمرنا بالأخلاق الكريمة فى قوله سبحانه : ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴿١٩﴾ ﴾ [سورة لقمان١٨ :١٩] .

" والصعر" داء يصيب البعير فيلوى منه عنقه ، وهو تعبير يفيد التنفير من كل حركة تشبه هذه الحركة ، ونهى عن المشي فى خيلاء وعجب ، وهى حركة يمقتها الله ، ويمقتها الناس، " واقصد فى مشيك " والمراد بالقصد هنا الاعتدال فى كل شيء ، وعدم الإسراف وعدم إضاعة الطاقة فى الخيلاء والتبختر، والإعجاب بالنفس .

ونحن نرى أن القصد فى المشي سواء أكان راجلاً أو ممتطياً صهوة دابةً كالفرس والبغل والحمار، والسيارة . فهنا يلفت القرآن نظرنا إلى الاعتدال فى المشية فقيل أن ينظم المرور قوانين السيارات فى المشي والسرعة فيحدد السرعة على الطريق الزراعي والصحراوي فعلى الطريق الزراعي مثلاً يقول يجب لن تكون سرعة السيارة بحيث لا تزيد عن تسعين كيلو مترا مثلا ، و فى الطريق الصحراوي لا تزيد السرعة عن عشرين ومائة كيلو متر مثلاً .

فالإسلام ينظم المرور بأسلوب مهذب ، وبمنأى عن الخيلاء ، والكبرياء والعجب فكثيرا ما نرى بعض أصحاب السيارات ينطلق الواحد منهم كالسهم فى الرمية غير عابئ ولا مكترث بالأطفال و كبار السن ، وذوى العاهات ، فيتسبب هذا العجب وعدم القصد فى المشي عن الحوادث وكوارث ، حتى أنهم يسمون قتلى السيارات " بشهداء الأسفلت " فانظر أخى المسلم الى روعة القرآن الكريم ، وعظمته وأنه من عند الله ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً .

كما وجهنا القرآن الكريم الى خفض الصوت فى أدب ، وَخُلُقْ . أما الحِدْة والغلظة و رفع الصوت لا يصدر إلاَّ من شَاكٍ فى نفسه ، أو مركب نقص لديه . [1] .

ويعنى القرآن الكريم فى توجيهاته الراشدة ، وحكمة العوالى ومعانيه الغوالى والإرشاد الى الأدب الرفيع ، فيبدأ برسوله الكريم – صلى الله عليه وسلم – فى بيته ولا غرر فهو الأسوة الحسنة ، والقدوة العظيمة ، وخطاب الرسول – صلى الله عليه وسلم – خطاب لأمته ، ونهيه نَهى لأمته " لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً " .

فيأمر الله – عز وجل- نبيه – صلى الله عليه وسلم – فيقول له بصيغة الأمر " يا أيها النبي قل لأزواجك اللاّتى تأذيت منهن بسبب سؤالهن إياك الزيادة فى النفقة لئن رغبتن فى سعة الدنيا ونعيمها ، وبهرجها الكاذب ، وزخرفها الخداع ، فتعالين حتى أدفع لكن متعة الطلاق ، وأطلقكن طلاقاً من غير ضِرَار وإن كنتن ترغبن فى رضوان الله تعالى ورسوله – صلى الله عليه وسلم – والفوز بموفور النعيم فى الدار الآخرة فإن الله سبحانه وتعالى قد هيأ للمحسنات منكن بمقابلة إحسانهن أجراً كبيراً ، و ثوابا عظيما ألاّ وهو الجنة التى فيها ما لا عين رأت و لا أُذُن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

يقول صاحب البحر المحيط :" لَمّاَ نصر الله نبيه – صلى الله عليه وسلم – وفرق عنه الأحزاب ، وفتح عليه " قريظة والنضير" ظن أزواجه أنه اختص بنفائس اليهود وذخائرهم فقعدن حوله و قلن : يا رسول الله :" بنات كسرى وقيصر فى الحَلِيّ والحُلَلُ ونحن على ما تراه من الفاقة والضيق " .

1- الظلال جـ ٥ ، ص ٢٧٨٨ و ما بعدها .
- تفسير القرآن العظيم ، جـ ٣ ، ص ٤٤٤ و ما بعدها .
- صفوة التفاسير جـ ٢ ، ص ٤٩١ و ما بعدها .
- الكشاف للزمخشرى .
- تفسير ابن جرير الطبرى .
- تفسير النسفى .
- التفسير الكبير للفخر الرازى .

وهن بهذا الأسلوب وذلك الكلام آلمين وآذين قلب النبي – صلى الله عليه وسلم- بمطالبتهن له بتوسعة الحال ، والعيش فى بحبوحة ورغد ، ولباس الحلي والحلل مثل بنات كسرى و قيصر ، وأن يعاملهن بما يعامل به بنات الملوك والأكابر من أزواجهم .

فأمر الله – عز وجل – أن يتلو عليهم فأنزل فى أمرهن ، وأزواجه إذ ذلك تسع زوجات . (١)

وهو أمر من الله تبارك وتعالى لرسوله – صلى الله عليه وسلم- بأن يخير نسائه بين أن يفارقهن فيذهبن إلى غيره ممن يحصل لهن عنده الحياة الناعمة وزينة الدنيا وبين الصبر على ما عنده من ضيق الحال ، ولهن عند الله فى ذلك الثواب الجزيل ، فاخترن – رضي الله عنهن – الله ورسوله والدار الآخرة .

فجمع الله تعالى بعد ذلك بين خير الدنيا ، وسعادة الآخرة فقول السيدة الفضلى " عائشة بنت أبى بكر " – رضي الله عنها – فيما يرويه البخاري أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – جاءت حين أمره الله تعالى أن يخير أزواجه ، قالت فبدأ بى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فقال :" إنى ذاكر لك أمراً فلا عليك أن لا تستعجلي حتى تستأمرى أبويك وقد علم أن أبوى لم يكونا يأمران بفراقه ، قالت : ثم قال :" إن الله تعالى قال: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ ... ﴾ [سورة الأحزاب:٢٨]

ذكر الآيتين فقلت له ففى أى هذا استأمر أبوى فأنى أريد الله ورسوله والدار الآخرة ثم فعل أزواج النبي – صلى الله عليه وسلم – مثل ما فعلت ، ففرح بذلك النبي – صلى الله عليه وسلم – و يروى إنها قالت مجيبة النبي – صلى الله عليه وسلم: لا أُؤامر فى ذلك أبوى " أبا بكر" و" أم رومان " – رضي الله عنهما – فضحك النبي – صلى الله عليه وسلم – ثم استقرأ الحجر فقال : " إن عائشة – رضي الله عنها – قالت كذا وكذا ، فقلن

1- البحر المحيط جـ ٧ ، ص ٢٢٥ و ما بعدها.

جميعاً ، يعنى بقية نساء النبي – صلى الله عليه وسلم – ونحن نقول مثل ما قالت عائشة – رضي الله عنهن . [1]

وقوله تعالى : ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا ﴾ [سورة الأحزاب :٣٠] .

يعنى من تفعل منكن كبيرة من الكبائر أو ذنبا تجاوز الحد فى القبح ويقول "ابن عباس " - رضي الله عنهما – يعنى النشوز وسوء الخلق ، يضاعف لها العذاب ضعفين، أى يكون جزاؤها ضعف جزاء غيرها من النساء ، لأن زيادة قبح المعصية تتبع زيادة الفضل والمرتبة ، وكان ذلك العقاب سهلاً ميسوراً على الله – سبحانه وتعالى – لا يمنعه منه كونهن نساء النبي – صلى الله عليه وسلم - ، وفى الآية " تلوين للخطاب " فبعد أن كانت المخاطبة على لسان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وجه الخطاب إليهن هنا مباشرة وذلك لإظهار الاعتناء بأمرهن ونصحهن ، يقول الصاوي وهذه الآيات خطاب من الله لأزواج النبي – صلى الله عليه وسلم- إظهارا لفضلهن و عظم قدرهن عند الله تعالى .

لأن العتاب والتشديد فى الخطاب مشعر برفعة رتبتهن . و ذلك لشدة قربهن من رسول الله – صلى الله عليه وسلم – حيث إنهن أزواجه و امهات المؤمنين . فبعد القرب من رسول الله – صلى الله عليه وسلم –يكون القرب من الله تعالى .

ويقول صاحب لطائف الإشارات زيادة العقوبة على الجرم من أمارات الفضيلة و لذا فصل حد الأحرار على العبيد يعنى جعل حد الحر ضعفي حد العبد وعوقب الأنبياء بما لا يعاقب به غيرهم ، وتقليل ذلك من أمارات النقص ، فلما كانت منزلتهن فى الشرف تزيد على منزلة جميع النساء ضاعف عقوبتهن على إجرامهن ، وضاعف ثوابهن على طاعتهن ، وقرأ المكي وسيئة " مُبَيَنة " بفتح الباء وهى عصيانهم رسول الله – صلى الله

1 - تفسير القرآن العظيم ، لابن كثير جـ ٣ ، ص ٤١٣ ما بعدها .

عليه وسلم – و نشوذهن ، وكل فاحشة نعتت فى القرآن الكريم " بالبينة " فهى بالنطق ولم تنعت بها زِنا .

ولذلك قيل : ليست المعصية فى القرب كالمعصية فى البعد . ولذلك كان الذم للعاصي العالم أشد منه العاصي الجاهل لأن المعصية من العالم أقبح .

وفى الحديث " أشد الناس عذاباً يوم القيامة عالم لم ينفعه علمه " [1] .

ولقوة الجرأة فى العالم دون غيره ، ولهذا فضل حد الأحرار على العبيد ولم يرجح الكافر.

و كان ذلك الفعل وهو يصف العَذَاب هيناً سهلاً على الله – سبحانه وتعالى :

﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴾ [سورة الأحزاب :٣١].

يعنى يستمر على الطاعة لله ورسوله وتعمل صالحاً نُؤتِها أجرها مرتين أى مثل ثوابي غيرها من النساء ، مرةً على الطاعة ، وأخرى على طلبهن رضا النبي – صلى الله عليه وسلم – ، بالقناعة ، وحسن المعاشرة ، وقرأ " حمزة الكسائى " بالغيب على لفظ " من " يعمل ، و " يؤتها " بالياء ، و قرأ الباقون " تعمل " و " نؤتها " و" اعتدنا لها رزقاً كريماً " يعنى رزقاً عظيماً جليل القدر وهو الجنة ، وهل هناك أعظم وأجل من الجنة ؟!! .

وقرأ يعقوب " تأت ، وتقنت " ، بالتاء حملاً على المعنى .

وقال قوم : إن الفاحشة إذا وردت مُعَرْفَة فهى " الزنا " و " اللِّواط " .

واذا وردت منكرة ، فهى سائر المعاصي واذا وردت " منعونة "، يعنى " موصوفة " فهى عقوق الزوج و وفساد عِـشْرَتْه . و قيل " فاحشة مبينة " تعم جميع المعاصي . وكذلك الفاحشة كيف وردت ، وقرئَ " يضاعف " " بكسر العين " وذلك على إسناد الفضل إلى الله

1- رواة الطبراني فى الصغير جـ ١ ، ص ١٨٢ والبيهقى فى الشعب حديث رقم ١٧٧٨.

تعالى ، وقرأ " العذاب " وهذه قراءة ابن محيصن وهذه مفاعله من واحد ، مثل : طارقت النعل ، وعاقبت اللَّص .

وقرأ " نافع وحمزة والكسائى " " يضاعف " بالياء وفتح العين مع رفع " العذاب " يعنى : يضاعف لها العذاب " و تلك قراءة الحسن وابن كثير وعيسى .

و قرأ ابن كثير وابن عامر " نضعف " بالنون ، وكسر العين المشددة " العذاب " بالنصب .

وهذا التضعيف فى العذاب إنما يكون فى الدار الآخرة .

وهذا أمر حسن لأن نساء النبي – صلى اللّٰه عليه وسلم – لا يأتين بفاحشة توجب حداً .

ويقول ابن عباس – رضي اللّٰه عنه :- ما بغت امرأة نبي قط ، وانما خانت فى الإيمان والطاعة .

ويقول بعض المفسرين :إن العذاب الذى توعدن به " ضعفين " هو عذاب الدنيا والآخرة .

فكذلك يكون الأجر أيضا فى الدنيا والآخرة والإشارة هى أن من شأن الملك أوالرئيس معاتبة الوزراء ومن يعملون تحت سلطانه ، ومن حقه أيضا مكافأتهم وحسابهم ، و عقابهم و عزلهم ، واثابتهم ، لأنه يملك ذلك وهم تحت قيادته و رهن إشارته .

يقول القشيرى : " زيادة العقوبة على الجُرم من أمارات الفضيلة مثل " حد الحُر" و " العَبد و تقليل ذلك من أمارات النقص ولما كانت منزلتهن فى الشرف تزيد وتربوا عن منزلة جميع النساء تضاعفت عقوبتهن فى إجرامهن و تضاعف ثوابهن على طاعتهن فقال : ومن يقنت منكن للّٰه ورسوله . الآية .

ثم يأمر اللّٰه – عز وجل – نساء النبي – صلى اللّٰه عليه وسلم – إن لا يخضعن فى القول وألاَّ يتكلمن بكلام لين مع الرجال حتى لا يثرن الفتنة ويطمع الذى فى قلبه مرض و كانت نساء العرب تخضع فى القول مع الرجال ويتحدثن مع الرجال بلين و تكسر وترخيم صوت و رقة بالغة ، فقال اللّٰه – عز وجل – لنساء النبي – صلى اللّٰه عليه وسلم:-

يا أزواج النبي – عليه الصلاة والسلام – لستن كجماعة من جماعات النساء ، فليس هناك جماعة مسلم تساويكن فى الفضل ، وان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ليس كأحد من الرجال .

يقول النبي – صلى الله عليه وسلم – انى لست كهيئتكم ، انى أُطَعُم وأُسْقَى " .

" فلا تَلِنْ القول " ، بل يكون كلامكن مع الرجال جزلاً و فصلاً ، ولا يكون تكسراً وَرِقْه حتى لا يطمع الذى فى قلبه خبث ولؤم ومرض وشك ونفاق .

وقلن قولاً حسناً جميلاً معروفاً فى الخير ، وَالزَمْنَ بيوتكن فلا تخرجن لغير حاجة، مثل الصلاة فى المسجد بشروطه ، وذلك لقول رسول الله – صلى الله عليه وسلم :-

" لا تمنعن إماء الله مساجد الله وليخرجن وهن تفلات – وفى رواية أخرى – وبيوتهن خير لهن .

فعن أنس – رضي الله عنه – قال : جئن النساء إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ، فقلن : يا رسول الله ذهب الرجال بالفضل ، والجهاد فى سبيل الله فما لنا عمل ندرك به عمل المجاهدين فى سبيل الله تعالى ، فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم :-

" من قعدت – أو كلمة نحوها – منكن فى بيتها فإنها تدرك عمل المجاهدين فى سبيل الله تعالى .

ويقول النبي – صلى الله عليه وسلم:" إن المرأة عورة فإذا خرجت استشرفها الشيطان ، وأقرب ما تكون بروحة ربها وهى فى قعر بيتها " .

وقال عليه السلام :" صلاة المرأة فى مخدعها أفضل من صلاتها فى بيتها وصلاتها فى بيتها أفضل من صلاتها فى حجرتها " .

ويقول " مجاهد " : كانت المرأة تخرج وتمشى بين يدي الرجال ، فذلك تبرج الجاهلية .

وقيل أن المرأة فى الجاهلية كانت تخرج متبرجةً و كانت لهن مشية تكسر وتقبح فنهى الله تعالى عن ذلك .

فالمشية الغير معتدلة والتى تثير الغرائز خاصة لدى الشباب منهي عنها شرعاً حيث أنها تدفع الشباب خاصة مرضى القلوب الى ارتكاب المناكر واجتراح السيئات فانظر الى ما يفعله نساء هذا العصر الأنكر من تبرج بزينةٍ و تكسر فى الكلام وميوعة وغمز و لمز كل ذلك حرام شرعاً ونهى عنه ديننا الحنيف حفاظاً على المرأة وكيانها ، وصونا للحرمات وحفاظاً على الأعراض ، وسلامة لإيمان المؤمنين .

وفى هذه الآيات نهى الله – سبحانه و تعالى – النساء عن الشر ثم أمرهن بالخير من إقامة الصلاة ، وايتاء الزكاة ، فانظر الى هذا المعنى العظيم حيث إن الله تعالى أمرهن بالخير من توحيد الله والذى يتمثل فى إقامة المسلم للصلوات المفروضة ، وإيتاء الزكاة وفيها إحسان للخلق ، ومساعدة للمعوزين ، ومساندة المحتاجين .

وعن ابن عباس - رضي الله عنه — أنه كان يقول :

﴿ ....إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ [سورة الأحزاب :٣٣].

إنما نَزَلَتْ فى نساء النبي – صلى الله عليه وسلم – خاصة .

والمراد " بالرجس " الأفعال الخبيثة والأخلاق الرديئة ، فالأفعال الخبيثة هى الفواحش ما ظهر منها و ما بطن ، وما جل وما قل .

والأخلاق الدنيئة هى : الأهواء والبدع مثل البخل والشح ، وقطع الرحم .

ويريد بهم الأخلاق الكريمة مثل : الجود ، والإيثار ، السخاء و صلة الرحم ، و يديم لهم :

" العصمة والتوفيق والسداد ، و يطهرهم من الذنوب والعيوب . واذكرن عظيم النعمة ، و جليل الحالة التى تجرى فى بيوتكن من نزول الوحي ، ومجيء الملائكة ، وحرمة الرسول – صلى الله عليه وسلم – والنور الذى يُقْتَبَس فى الآفاق و نور الشمس الذى ينبسط على العالم ، فاعرفن هذه النعمة ، وارعين هذه الحرمة .

وَعُرِفَ هنا بمعنى " ذكر الفضل " .

" الطاعة "

ومن الأخلاق القرآنية الكريمة التى وجهنا إليها القرآن الكريم لتكون للمؤمنين هُدىً و رحمة ، وتبصرة وذكرى ، و نوراً يضئ أمامهم الطريق ويبصرهم بما لا يعرفون فقال :

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴾ [سورة الأحزاب :٣٦] .

ما كان لمؤمن و لا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً من الأمور أن يختاروا من أحدهم شيئا ، بل الواجب عليهم أن يجعلوا رأيهم تبعاً لرأيه واختيارهم تلواً لاختياره .

والصحيح والراجح إنها نزلت فى السيدة الفضلى" زينب بنت جحش " و كانت– رضي الله عنها – وأخيها "عبد الله بن جحش "وكانت " بنت " أميمة بنت عبد المطلب " عمة النبي – صلى الله عليه وسلم – فخطبها – عليه الصلاة والسلام – لمولاه " زيد بن حارثة " – رضي الله عنه – فلما خطبها ، ظنت أنه خطبها لنفسه فرضيت فلما علمت أنه خطبها " لزيد بن حارثة " كرهت وابت .

وقالت :" أنا أم نساء قريش وابنة عمتك ، فلم أكن أَرضِهِ لنفسي وكذلك قال أخوها .

وكانت " زينب " بيضاء جميلة ، وكان فيها بذاذةً ، فأنزل الله تعالى هذه الآية :

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ ﴾ [سورة الأحزاب :٣٦] .

فأعلمهم الله – عز وجل – أنه لا اختيار لهم على ما قضى الله ورسوله – صلى الله عليه وسلم- ، فلما علمت " زينب بنت جحش " – رضي الله عنها – بهذه الآية قالت :

" رضيت يا رسول الله ، وجعلت أمرها بيد النبي – صلى الله عليه وسلم - وكذلك أخوها ، فزوجها النبي – صلى الله عليه وسلم – " زيد بن حارثة " – رضي الله عنه – فدخل

بها ، وامهرها النبي – صلى الله عليه وسلم –عشرة دنانير و ستين درهما وملحقة ودرعا وازارا ، و خمسين قدراً من طعام ، وثلاثين صاعاً من تمر.

وقيل إنها نزلت فى " أم كلثوم بنت عقبة بن أبى معيط " – رضي الله عنهما – وكانت أول من هاجر من النساء ، فوهبت نفسها للنبي – صلى الله عليه وسلم – فقبلها .

وقال : " زوجتها زيد " فسخطت هى وأخوها وقالا :

" إنما أردنا النبي – صلى الله عليه وسلم – " و الأولى أصح .

ومن يَعْصِ الله ورسوله فيما اختار وقضى فقد ضل ضلالاً مبينا واضحاً ظاهراً بينا .

ثم مكثت " زينب بنت جحش " عند " زيد " زماناً ، ثم طُلِقَت منه وتزوجها الرسول – صلى الله عليه وسلم – بأمر من الله وذلك لهدم قاعدة النبي والتى كانت فى الجاهلية ، والقصة معروفة مشهورة ، فكان ذلك التزويج بأمر من الله ولحكمةٍ بالغةٍ .

وهى هدم قاعدة التبنى والتى كانت فى الجاهلية ثم تبنى سيدنا محمد – صلى الله عليه وسلم – " زيداً " فكان يدعى " زيد بن محمد " فدعى بعد ذلك لأبيه " ٱدْعُوهُمْ لِأَبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ...... ﴾ [سورة الأحزاب :٥].

قال تعالى : ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا " ﴾ [سورة الرعد :٤٠] .

" مراعاة المشاعر "

ثم يبين الله – عز وجل – الأخلاق التى يجب أن يتحلى بها المؤمنون والآداب الرفيعة التى يجب أن يكون عليها المسلمون عند دخولهم البيوت ، وذلك لما لها من الحرمة والكرامة والستر صيانة للحرمات ، و حفاظا للأعراض ، وستر العورات ، و عدم الاختلاط الذى يؤدى الى الانحراف ، و نشر الفساد فى الأرض فلما أن ذكر الله – عز وجل – أحوال النبي – صلى الله عليه وسلم – مع أزواجه ذكر الآداب التى ينبغي أن يتحلى بها المؤمنون عند دخولهم بيوت النبي – صلى الله عليه وسلم – من الاستئذان ، وعدم الإثقال ، ثم يبين شرف الرسول – عليه الصلاة والسلام – وذلك بصلاة الله والملائكة عليه ، و ختم السورة الكريمة بالحديث عن الساعة ، وما يعقبها من أهوال لأهل الكفر والضلال ، وحال الأشقياء والسعداء فى دار البقاء .

فقال تعالى :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَـٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَـٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَـٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴾ [سورة الأحزاب :٥٣].

و قال ابن عباس – رضي الله عنه :-

" كان ناس من المؤمنين يتحينون طعام النبي – صلى الله عليه وسلم – فيدخلون قبل أن يدرك الطعام ، ويقعدون الى أن يدرك ، ثم يأكلون ولا يخرجون فنزلت الآية .

وعن عائشة – رضي الله عنها – أن عمر – رضي الله عنه- قال : يا رسول الله إن نساءك يدخل عليهن البر والفاجر فلوا مرتهن أن يحتجبن .

" **فنزلـت أيـة الحجـاب** : ﴿ ..وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ .... ﴾ .

وعن السعدى أن الفُسْاَق كانوا يؤذون **النساء** إذا خرجن بالليل فإذا رأوا المرأة عليها قناع تركوها ، وقالوا " هذه حرة " ، واذا رأوها بغير قناع قالوا :" **أمة فأذوها** " **فأنزل الله عز وجل** – :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [سورة الأحزاب :٥٩]

والإضافة فى الآية للتشريف والتكريم ، والآية توجيه وإرشاد للمؤمنين لهذا الأدب الرفيع السامي ، والمعنى " لا تدخلوا بيوت النبي – صلى الله عليه وسلم – بأي حال من الأحوال إلاَّ بعد الإذن لكم منه – عليه السلام – مراعاةً لحقوق نسائه ، وحرصاً على عدم إيذائه والإثقال عليه إلاَّ حين يدعوكم إلى طعام غير منتظرين لنضجه واستوائه ، ولكن إذا دعيتم وأُذِنَ لكم فى الدخول فادخلوا فإذا أكلتم فانتشروا وتفرقوا وانصرفوا إلى دُوُرِكم ولا تمكثوا بعد تناولكم الطعام فهذا أدبٌ عالٍ ، وتوجيه راشد و نهى اطاله المكث والجلوس بعد تناول الطعام للتحدث والكلام والمحاورة بعضهم البعض ، فان هذه الخصلة و تلك العادة تؤذى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وتضايقه ، وبمنعه ذلك الصنيع من قضاء مصالحه ، أوالإخلاد الى الراحة ، فيستحى من إخراجكم وحياؤه يمنعه من أن يأمركم بالخروج والانصراف لخلقه الرفيع وأدبه الجم ، والحياء الذى ما بعده حياء ، ولكن الله – سبحانه وتعالى – لا يترك بيان الحق ، ولا يمنعه مانع من إظهاره ، وتبيانه لجميع المؤمنين .

يقول الإمام " الثعالبي " : " حسبك من الـثُقَلاء إن الشرع لم يحتملهم ، وإذا أردتم حاجة أو مسألة من زوجات النبي – صلى الله عليه وسلم – فاسألوه من وراء حجاب و برزخ وحاجز فان ذلك أطهر لقلوبكم وقلوبهن ، وأتقى للريبة والتهمة والشك .

ولا يليق بكم أن تفعلوا شيئاً من هذه الأشياء التى يتأذى منها النبي – صلى الله عليه وسلم – وهو النور الذى هداكم الى الرشد ، واخذ بأيديكم إلى الصراط السوي المستقيم واهتديتم الى الحق بواسطته – صلى الله عليه وسلم - ، ولا أن يتزوجوا من بعده أزواجه وتلك خصوصية الرسول – عليه السلام - وتكريم وتشريف أيضا فهو – عليه السلام – ليس مثل الناس ، ولا زوجاته ككل الزوجات " وما منا إلا له مقام معلوم " ومقام حضرة النبي – صلى الله عليه وسلم – مقام رفيع عالٍ لا يرقى إليه نبي ولا رسول ولا بشر.

ولأن زوجات النبي – صلى اللّه عليه وسلم – أمهات المؤمنين ، يعنى كأمهاتهم فى وجوب التوقير والتعظيم والاحترام .

والنبي -عليه السلام – مثل الوالد فهل يليق بكم أن تؤذوه في نفسه وأهله ؟ ... إن إيذاءه ونكاح أزواجه من بعده أمر عظيم ، وإثم كبير لا يغفره الله لكم .

يقول أبوالسعود :" وفيه من تعظيمه تعالى لشأن الرسول – صلى الله عليه وسلم– وإيجاب حرمته حياً وميتاً ما لا يخفى " وختم هذا التوجيه القرآني الكريم

بقوله تعالى : ﴿ .....إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴾ [سورة الأحزاب :٥٣].

أخي المسلم ، أختي المسلمة ، أرأيتم هذه التوجيهات الراشدة ، والتي تأخذ بيد المسلمين إلى النجاة ، والنأي عن الشبهات ، فمن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه ومن نأى عنها استبرأ لدينه وعرضه ، وما حلّت النكبات بالمسلمين وما نزلت المصائب إلاَّ بعد تخليهم عن هذه الآداب القويمة وعن منهج الله الذي أدَّب الله به المسلمين الأُول الذين اتبعوها فسادوا ، و ملكوا أقطار الأرض ، و فتحوا البلدان قاصيها و دانيها، و حطّموا امبراطوريتى الفرس والروم ، حتى امتدت خارطة الدولة الإسلامية فكانت حدودها من الصّين شرقاً إلى أن أطل الإسلام برأسه من فوق جبال " البرانس " فى فرنسا غربا وبعد أن تخلى المسلمون عن هذه التوجيهات وتلك الآداب انتشرت الفوضى ، ودبّ الفساد فى الأرض ، وانتهكت الأعراض وديست الحرمات بالأقدام ، واغتصب العدو المتربص بنا

الدوائر والأعراض، والأراضى ، مثل ما فعل ويفعل " فى العراق ، وفلسطين المحتلة والبوسنة والهرسك ، و جمهورية الشيشان وغيرها من بلدان المسلمين التى تقع تحت وطأة النصرانية الحاقدة ، واليهودية الماكرة .

فواجب على المسلمين اليقظة والصحوة وأن يفيقوا من نومهم ويستيقظوا من رقادهم ، والتنبه من غفلتهم ،لاستعادة الأرض ، والحفاظ على العرض .

ولن يكون ذلك إلاَّ باتباع هذا الخُلُق القرآني الكريم ، و ما جاء فيه من توجيهات راشدة ، و نصائح مفيدة ، تعدّ نبراسا ومصباحا يضيء للمؤمنين طريقهم الشاحب ، و بذلك يسعد المؤمن فى دنياه ، و يفوز بالجنة فى أُخراه والجزاء الحسن يوم أن يلقاه .

فهلا يرعوى المسلمون ويلتفتوا الى كلام ربهم وتوجيهات نبيهم وارشادات سنتهم .

و لو أنهم اتبعوا ذلك ما شَقُوا ، و لسعدوا فى حياتهم ، ونعموا فى الآخرة بدار عرضها السموات والأرض أعدت للذين يعملون بتوجيهات القرآن الكريم وما حواه من آداب وأخلاق ، واستمساك بسنة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – [١].

و تلك آية قرآنية كريمة تتحدث عن الأخلاق ، وترشد المسلم والمسلمة إلى اتخاذ الحيطة والحذر والوقاية حتى لا تقع المسلمة فيما حرم الله – عز وجل – فيقول سبحانه:

1- القرطبي جـ ١٤ ، ص ٢٢٤ ، ص ٢٤٦.
- التسهيل فى علوم التنزيل جـ ، ص ١٤٢.
- زاد المسير لابن الجوزى جـ ٦ ، ص ٤٢٢ .
- البحر المحيط جـ ٧ ، ص ٢٤٧ .
- ابو السعود جـ ٤ ، ص ٢١٨ .
- البيضاوي جـ ٢ ، ص ١٢٠ .
- الظلال جـ ٥ ، ص ٢٨٧٧ .
- لطائف الارشارات جـ ٣ ص ١٦٨ و ما بعدها .
- البحر المديد لابن عجيبة جـ ٤ ص ٤٥٣ و ما بعدها .
- حاشية الشهاب على البيضاوي جـ ٧ ، ص ١٨٢ و ما بعدها .
- تفسير ابن كثير جـ ٣ ، ص ٥٠٣ و ما بعدها .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿٥٩﴾ ﴾ [سورة الأحزاب :٥٩].

والسرّ والسبب فى هذا التوجيه الرباني هو: أن إناسا من فُسّاق أهل المدينة كانوا يخرجون ليلاً حين يختلط الظلام الى طريق المدينة فيتعرضون للنساء وكانت مساكن أهل المدينة ضيقة ، وكان النسوة يخرجن لقاء حاجاتهن فى النخيل ،أوالغيضات و مفردها – غيضة – وهو الشجر الكثير الملتف وكان أولئك الفساق يتعرضون للإماء وكانوا إذا رأوا المرأة و عليها جلباب قال الفساق : " هذه حرة " فَكَفُّوا أَذَاهُم عنها ، وإذا رأوا المرأة وليس عليها جلباب قالوا " هذه أمة فوثبوا عليها " و يقول مجاهد " تجلببن فيعلم إنهن حرائر، فلا يتعرض لهن فاسق بأذى ولا ريبة .

وقوله " وكان الله غفوراً رحيما " يعنى لما سلف وتقدم فى أيام الجاهلية حيث لم يكن عندهن علم بذلك ومن ذلك الجهد المستمر فى تطهير البيئة العربية والتوجيه المطرد لإزالة جميع أسباب الفتنة والفوضى ، و حصرها فى نطاق ضيق حتى يسيطر الإسلام بتعاليمه التى تحفظ على المسلم خُلُقِه وكرامته .

والمتأمل فى هذه الآية يرى أن الله – سبحانه وتعالى – يأمر نبيه – صلى الله عليه وسلم – أن يأمر نساءه و بناته ، ونساء المؤمنين عامةً إذا خرجن لحاجتهن أن يغطين أجسامهن ، ورؤوسهن ، وجيوبهن – وهى فتحة الصدر من الثوب – بجلباب كاسٍ فيميزهن هذا الزى ويجعلهن فى مأمن من معابثة الفُسّاقَ .

فإن معرفتهن وحشمتهن معا تُلّقِيَان الخجل والحرج فى نفوس الذين كانوا يتتبعون النساء للعبث بهن .

يقول " أنس – رضي الله عنه :" مرت جارية متقنعة بسيدنا " عمر بن الخطاب " – رضي الله عنه – فعلاها بالدرة ، وقال : يالكاع . أنت تتشبهين بالحرائر فألق القناع .

وبمناسبة ذكر زوجاته – صلى اللّٰه عليه وسلم – فقد مات – عليه الصلاة والسلام – عن تسع زوجات ، خمس من قريش : عائشة ، وحفصة ، وأم حبيبة ، وسودة وأم سلمة ، و ثلاث من سائر العرب وهن : ميمونة ، وزينب بنت جحش ، و جورية وواحدة من بني هارون وهى : صفية – رضي اللّٰه عنهن .

وقيل دخل نسوة من بني تميم على عائشة رضي اللّٰه عنها عليهن ثياب رِقَاق فقالت عائشة: إن كنتن مؤمنات فليس هذا بلباس المؤمنات، وإن كنتن غير مؤمنات فتمتعينه. أى فَتَمَتْعن به .

ودخلت امرأة عروس على عائشة رضي اللّٰه عنها وعليها خِمَار قُطْنّي معصفر، فلما رأتها قالت: لم تؤمن بسورة " النور " امرأة تلبس هذا.

وثبت عن النبي صلى اللّه عليه وسلم أنه قال: (نساء كاسيات عاريات مائلات مميلات رؤوسهن مثل أسنمة البخت لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها).

وقال عمر رضي اللّه عنه: ما يمنع المرأة المسلمة إذا كانت لها حاجة أن تخرج في أطمارها ، أوأطمار جارتها مستخفيةً، لا يعلم بها أحد حتى ترجع إلى بيتها.

والأَطِمْار جمع " طمر " بكسر الطاء وسكون الميم " وهو ثوب الخلق" والآن و بخاصة فى العصر الأنكد يجب الستر والتقنع فى حق الجميع" الحرائر والإماء " على السواء لكثرة الفتن التى يموج بها هذا العصر ، والتيارات التى تهدف الى هدم الأخلاق لدى الشباب المسلم ويساعد ذلك على أمور عدة منها خواء ديني ، و ضيق اقتصادي ، وإعلام هابط ، وغزو فكرى وثقافي من الخارج محاربةً لدين اللّٰه – عز وجل – وسنة نبيه – صلى اللّٰه عليه وسلم – مع قول " لا تمنعوا إماء اللّٰه مساجد اللّٰه " ، حتى قالت السيدة الفضلى" عائشة بنت أبى بكر" **وزوج رسول اللّه – صلى اللّه عليه وسلم** :" لو عاش رسول اللّٰه – صلى اللّٰه عليه وسلم – إلى وقتنا هذا لمنعهن من الخروج إلى المساجد كما مُنِعَت نساء بني إسرائيل " .

ويقول ابن عجيبة فى إشارات الصوفية الى هذه المعاني : " ينبغي لنساء الخواص أن يتميزن من نساء العامة ، وذلك بزيادة الصوف والتحفظ و قلة الخروج، فإذا لزمهن الخروج ، فليخرجن فى لباس خشن بحيث لا يعرفن ، أو يخرجن ليلاً . وثبت أن زوجة الشيخ " أبوالحسن الشاذلي " – رضي اللّه عنه – لم تخرج من دارها إلاَّ خرجتين خَرجةً حين زُفّت إلى زوجها وخرجةً إلى المقابر – نفعنا اللّه ببركاتهم .

أما فى هذا العصر فالحق ، والحق نقول إن الإسلام لا يُمَانع فى خروج المرأة كما انه لا يُمَانع فى أن تعمل عملاً يناسب أنوثتها كصيدلانية مثلا أو مدرسة ، أو طبيبة لأمراض النساء أو ممرضة ..... وهكذا .

وهذا أحرى بها لستر العورات ، ومنع الاختلاط ، واختلاس النظر من الأطباء الرجال ، أو إثارة الغرائز ، شريطة أن تخرج متحجبةً كما أمرها اللّه – عز وجل – فى القرآن الكريم ، ورسوله – صلى اللّه عليه وسلم – فى سنته المطهرة وتلبس من الثياب ما لا يشف و لا يصف ستراً للعورات .

ودرءاً للمفاسد ، ودفعاً للشبهات ، وصوناً للأعراض ، وتحلياً بالأخلاق القرآنية الكريمة ، وقدوتنا جميعا فى ذلك رسولنا الكريم – صلى اللّه عليه وسلم – وزوجاته الطاهرات – رضي اللّه عنهن – .

أما أن يقول بعض المتنطعين والذين لا يفهمون حقيقة الإسلام ، وجوهر الدين وَلاَ يفقهون شيئاً من أهداف الإسلام السامية ، وأغراضه الشامخة .

وسيره النيرة فى أن عمل المرأة المسلمة وخروجها للعمل " حرام " فهؤلاء لا يفقهون شيئا فى فقه الإسلام ، و هم دعاة باطل و هدم لأصول الإسلام و قواعده السمحة الكريمة و قد عملت المرأة فى عهد رسول – صلى اللّه عليه وسلم – طبيبة وممرضة ، وسقاءة فى الغزوات وكما أنها شاركت فى الأمور السياسية .

فروى أن الصحابية الجليلة " أم الربيع " –رضي اللّه عنها – تقول : " كنا فى غزوة أُحُد نُحَرْزُ القِرَبْ ، ونسقى العطشى ، و نضمد جراح الجرحى .

وحسبنا قول أمير الشعراء " احمد شوقي " :

هـــــذا رســـــول الله لـــــم ... يـــــنقض حقـــــوق المؤمنـــــات

العلـــــم كـــــان شـــــريعة ... لنـــــسائه المتفقهـــــات

رضـــــن التجـــــارة والـــــسياسة ... والـــــشئون الأخريـــــات

فـلا يمـانع الإسـلام فـى أن تعمـل المـرأة عمـلاً ينـاسـب أنوثتهـا مـع الحِـشْمَة والوقار والاحترام والحجاب .[١]

1 - القرطبى جـ ٨ ، ص ٣٢٣.

" التوقير والاحترام "

ومن الآيات القرآنية الكريمة التى تتحدث عن الأخلاق ، وترسم للمسلم الأدب الرفيع الذى أدب الله به المؤمنين ، تجاه شريعة الله ، وأمر رسول – صلى الله عليه وسلم – وهو ألا يبرموا أمرا ، أو يقضوا حكما فى النبي – صلى الله عليه وسلم – حتى يستشيروه ويستمسكوا بإرشاداته الحكيمة **فقال تعالى :**

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴾

[سورة الحجرات :١]

ثم انتقلت الى أدب آخر وهو خفض الصوت إذا تحدثوا مع الرسول – عليه الصلاة والسلام – تعظيما لقدرة الشريف ، واحتراما لمكانه السامي ، فانه ليس كعامة الناس بل هو رسول الله ، ومن واجب المؤمنين أن يتأدبوا معه فى الخطاب مع التوقير والتعظيم والإجلال ، **فقال تعالى :**

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ﴿٢﴾ ﴾ [سورة الحجرات :٢]

والمعنى يا أيها المؤمنون يا من صدقتم بكتاب الله وآمنتم برسول الله– صلى الله عليه وسلم – لا تقدموا أمرا ، أو فعلا بين يدي الله ورسوله ، فإذا عرضت مسألة فى مجلسه – صلى الله عليه وسلم – لا يسبقونه بالجواب واذا حضر طعام لا يبتدأون بالأكل قَبْلَهُ وإذا ذهبوا معه الى مكان لا يمشون أمامه .

يقول " ابن عباس " – رضي الله عنهما – نهوا أن يتكلموا بين يدي كلامه – صلى الله عليه وسلم– ويقول "الضحاك " :" لا تفضلوا أمرا دون الله ورسوله من شرائع دينكم و يقول " البيضاوي " المعنى لا تقطعوا أمراً قبل أن يُحكم به .

وقيل المراد بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم وذكر الله تعظيم له وإشعار بأنه من الله بمكان يوجب إجلاله .

{... وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ...} في التقديم أو مخالفة الحكم .

{ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ } لأقوالكم . { عَلِيمٌ } بأفعالكم ، عليم بنياتكم وأحوالكم .

واظهار الاسم الجليل لتربية المهابة والروعة فى النفس ،

ثم أرشد الله – عز وجل – المؤمنين الى وجوب احترام ، وإجلال ، وتقدير النبي -صلى الله عليه وسلم – فقال لهم : " لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ، ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض فى الحديث ، وإذا كلمتم النبي – علية الصلاة والسلام – فلا تخاطبوه باسمه ، أو كنيته كما يخاطب بعضكم بعضا ، فتقول " يا محمد " ، ولكن قولوا : "يا نبي الله " أو " يا رسول الله " إجلالاً لقدرهِ ، ومراعاة الأدب معه ويقول المفسرون :

نزلت هذه الآيات فى بعض الأعراب الجفاة ، الذين كانوا ينادون رسول الله باسمه ، و لا يعرفون توقير الرسول الكريم ، ثم حذرهم خشية أن تبطل أعمالهم من حيث لا يدرون ، ولا يشعرون ، فإن رفع الصوت ، والجهر بالكلام فى حضرته – صلى الله عليه وسلم – استخفافاً قد يؤدى إلى الكُفْر المحبط للعمل ، وكان ثابت بن قيس بن الشماس رفيع الصوت فقال: أنا الذي كنت أرفع صوتي على رسول الله صلى الله عليه وسلم حبط عملي، أنا من أهل النار، وجلس في أهله حزينا ففقده رسول الله صلى الله عليه وسلم فانطلق بعض القوم إليه فقالوا له: تفقدك رسول الله صلى الله عليه وسلم، ما لك؟ قال: أنا الذي أرفع صوتي فوق صوت النبي صلى الله عليه وسلم، وأجهر له بالقول حبط عملي أنا من أهل النار.

فأتوا النبي صلى الله عليه وسلم فأخبروه بما قال، فقال: "لا بل هو من أهل الجنة" [1] .

1 - اخرجه مسلم .

و فى رواية أُخرى قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أما ترضى أن تَعِيش حَميداً، وتقتل شهيداً، وتدخل الجنة؟".

فقال: رضيت بِبُشرى الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، ولا أرفع صوتي أبداً على صوت النبي صلى الله عليه وسلم (١).

ثم ذم الله تعالى الأعراب الجفاة ، الأجلاف ، قساة الطبع ، غلاظ الأكباد والقلوب الذين ما كانوا يتأدبون فى ندائهم لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – فقال تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [سورة الحجرات : ٤].

يعنى يدعونك من وراء الحجرات ، وهى منازل أزواجه – صلى الله عليه وسلم – الطاهرات ، العفيفات ، المؤمنات ، الصادقات ، أكثرهم لا يعقلون حيث أن العقل يقتضى الأدب ، ومراعاة العظماء عند خطابهم خاصة النبي – صلى الله عليه وسلم – وهو صاحب المقام الأسمى ، والشرف الرفيع ، والحذوة عند الله – سبحانه و تعالى – .

يقول " البيضاوي " : " عيينة بن حصن والأقرع بن حابس وفدا على رسول الله صلى الله عليه وسلم في سبعين رجلا من بني تميم وقت الظهيرة وهو راقد فقالا :يا محمد اخرج إلينا .

ولو أن هؤلاء المنادين لم يزعجوا النبي – صلى الله عليه وسلم – بمناداتهم هذه وصبروا حتى يخرج إليهم لكان ذلك الصبر خيراً لهم وأفضل عند الله وعند الناس ، وذلك لما فيه من مراعاة الأدب مع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – والله هو الغفور لذنوب العباد الرحيم بالمؤمنين حيث اقتصر الله – عز وجل – على نصحهم وإرشادهم وتبصيرهم إلى ما يجب أن يكونوا عليه من الأدب ، والخلق خاصة فى مقام حضرة النبي – صلى الله عليه وسلم – ولم يُنْزِل العقاب بهم .

1- رواه ابن جرير الطبرى.

" التثبيت من الخبر "

ومن الدعوة القرآنية الكريمة للأخلاق ، تحذيره – سبحانه و تعالى – من الاستماع للأخبار بغير تثبت فقال تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [سورة الحجرات :٦]

لئلا تصيبوا قوماً وأنتم جاهلون حقيقة الأمر فتصيروا نادمين أشد الندم على صنيعكم هذا وَيُرَوى أن " عمر بن عبد العزيز " – رحمه الله تعالى – و هو خامس خلفاء بني أمية .

جاءه رجل و قال له : إن فلانا يقول فى حقك كيت وكيت ، فقال " عمر ابن عبد العزيز – يا هذا أنت أحد ثلاثة أمور ، إن كنت صادقا فيما جئتني به فأنت فاسق ، وإن كنت كاذبا فأنت حقير ، وإلا فإن هذا الشيء لم يحدث ، فعاهدني على التوبة ، فقال بعض الحاضرين فى مجلسه ، يا أمير المؤمنين ، كيف ؟ .

فقال " عمر بن عيد العزيز " – رحمه الله تعالى – إن كان صادقا فهو فاسق لقول الله – عز وجل : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ﴿٦﴾ ﴾ [سورة الحُجُرات:٦]

ولم يبين ما نوع الخبر ، فإن كان صادقاً فهو فاسق ، وإن كان كاذباً فهو حقير لقوله – عز وجل :

﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴾ [سورة القلم١٠ :١٢]

فسقط الرجل بين يدي " عمر بن عبد العزيز " واعترف بخطئه ، وعاهده على التوبة

أرأيت هذا الخلق ، وذلك الصنيع الاسلامى ، فلوان كل مسلم أو مسلمة فعل بالذين يوصلون الكلام الكاذب ، والأخبار الفاسدة التى تقطع صلة الأرحام وتقضى على

ما بين الناس من وشائج وأمشاج لصار المجتمع الاسلامى مجتمعاً نظيفاً خالياً من هذه الأمراض التى تفسد المجتمع ، وتفسح المجال للشر .

هذا هو خلق القرآن الكريم ، والذى يوشى ، ويوقع العداوة والبغضاء بين الناس ويكون سبباً فى قطع صلة الأرحام ، والإفساد بين المسلمين سيندم على فعله ، وستحسر على صنيعه ، واعلموا أيها المؤمنون أن النبي – صلى الله عليه وسلم – لو يسمع وشاياتكم ويطيعكم فى غالب ما تشيرون عليه من الأمور لهلكتم .

فأطيعوا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – لأنه أعلم بمصالحكم وأشفق عليكم منكم ، ولو أنه أطاعكم فى جميع ما تختارونه لأدى ذلك إلى عنتكم وإحراجكم ، ولكن الله تعالى بفضله نور بصائركم فحبب الإيمان إلى نفوسكم وزينه فى قلوبكم حتى أصبح عندكم أغلي من كل شيء .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ١١ ﴾ [سورة الحجرات :١١]

ثم يناديهم بصفة الإيمان ، يا من آمنتم بالله وصدقتم بكتاب الله ورسوله لا يهزأ جماعة بجماعة ، ولا يسخر أحد من أحد ، فقد يكون المستهزئ به خيرٌ عند الله ، وأفضل من المستهزئ ورب أشعث أغبر لو أقسم على الله لأبْره ، ولا يسخر نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن ، ولا يعب بعضكم بعضا ولا يدعو بعضكم بعضاً بلقب السوء ، لأن المسلمين جميعاً كأنهم نفس واحدة فبئس أن يُسَمْى الإنسان فاسقاً بعد أن صار مؤمناً .

يقول الإمام " البيضاوي" وفى الآية دليل ، أو دلالة على أن التنابز فسق والجمع بينه وبين الإيمان مستقبح ، ومن لم يَتُب عن اللَّمز والتنابز فأولئك هم الظالمون لأنفسهم حيث إنهم سيتعرضون لعذاب الله وانتقامه ، ثم يحذر القرآن الكريم من الظن السيئ حيث إن بعض الظن إثم وذنب يستحق صاحبه العقوبة عليه .

روى عن عمر بن الخطاب رضي اللّٰه عنه : لا تظنن بكلمة خرجت من فِيه أخيك سوءاً وأنت تجد لها في الخير محملاً ، ولا تبحثوا عن عورات المسلمين و لا تتبعوا معايبهم .

وفى الحديث " يا معشر من آمن بلسانه ، و لم يفض الإيمان إلى قلبه لا تغتابوا المسلمين ، ولا تتبعوا عوراتهم ، فإنه من يتبع عورة أخيه ، يتبع اللّٰه عورته ، ومن يتبع اللّٰه عورته يفضحه ولو فى جوف بيته " [١] .

روي أن عمر ابن الخطاب رضي اللّٰه عنه خرج يتفقد رعيته ذات مرة فسمع صوتاً غريباً فاقترب من الباب الذي صدر منه الصوت وإذا صاحب البيت ومعه اثنان يشربون الخمر فقفز أمير المؤمنين عن الحائط وأمسك به فقال له صاحب البيت إني أخطات في واحدة أما أنت فقد أخطات بثلاث إن اللّٰه يقول "ولا تجسسوا" وأنت تنصت علينا ويقول " ولا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها "ولم يؤذن لك ويقول "وأتوا البيوت من أبوابها" وأنت قفزت عن الجدار. فسامحه أمير المؤمنين .

وفى روايةٍ أخرى للحادثة أخبرنا عبد الرزاق عن معمر عن عبد الرحمن ابن عوف أنه حرس ليلة مع عمر بن الخطاب ، فبينما هم يمشون شب لهم سراج في بيت ، فانطلقوا يؤمونه ، حتى إذا دنوا منه ، إذا باب مجاف على قوم لهم فيه أصوات مرتفعة ولغط فقال عمر وأخذ بيد عبد الرحمن : أتدري بيت من هذا ؟ قال : قلت : لا ،.

قال : هو ربيعة بن أمية بن خلف، وهم الآن شرب ، فما ترى ؟ قال عبد الرحمن: أرى قد أتينا ما نهانا اللّٰه عنه ، نهانا اللّٰه فقال : (ولا تجسسوا)، فقد تجسسنا ، فانصرف عنهم عمر وتركهم [٢] .

أرأيت الحرية والديمقراطية الحقة ، وليست المزيفة ، ومع من ؟

1 - اخرجه الحافظ ابو يعلى
2 - مصنف عبد الرازق .

إنه أمير المؤمنين ، ووزير الداخلية سيدنا " عمر بن الخطاب " – رضي الله عنه – حيث إنه هوالذى أنشأ وزارة الداخلية ، وكانت تسمى " وزارة العسس " .

وهو أيضا الذى أنشأ " الدوريات السيارة " لتفقد أحوال الشعب ومعالجة ما يعن من أخطاء ومخالفات ، و هو منشئ الدواوين ، واستمارة الرواتب للموظفين . إنه الأمن والأمان الحقيقيين ، ولن يعيش الناس فىأمن وأمان حقيقيين إلاَّ فى ظِلاَل دولة يحكمها الإسلام ، بأخلاق القرآن الكريم وسنة نبينا العظيم سيدنا محمد – صلى الله عليه وسلم .

ومن الأخلاق القرآنية الكريمة أَلاَ يذكر بعضكم بعضاً بالسوء فى غيبته بما يكره وأورد تمثيلاً بشعاً ، شنيعاً لشناعة الغيبة وقبحها ، فقال الله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴾ [سورة الحجرات :١٢] .

يعنى هل يحب الواحد منكم أن يأكل لحم أخيه المسلم وهو ميت ؟

والمقصود لو قدم لك لحم أخيك المسلم الميت طعاماً هل تتوق نفسك إليه ؟ و هل تستطيع مضغه ؟ وهل تستطيع أن تلوكه بلسانك ؟ إن النفوس السوية تعاف ذلك وتأباه فكما تكرهون تناول لحم المسلم الميت طعاماً فاكرهوا الغيبة شرعاً وهو خُلُق قرآني وتوجيه رباني ، ونصح سماوي ، وبيان نبوي فكما يكره هذا من الواجب على المسلم كراهية الغيبة كراهية شديدة كما يجب الخوف من الله ، والحذر من عقابه ولا يكون ذلك إلا بامتثال أوامره ، واجتناب نواهيه ، إنه تعالى كثير التوبة ، عظيم الرحمة لمن اتقى الله وتاب إليه وأناب ، وفيه حث على التوبة ، وترغيب بالمسارعة الى الندم ، والاعتراف بالخطأ

حتى لا يقنط المسلم من روح الله [1] .

وفى هذه الآيات يبين الله – عزوجل - أخلاق المتقين الذين تجافت جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ، ومما رزقناهم ينفقون ، والذين لم تكتحل أعينهم بنوم، ولم تهنأ برقاد ، ولم تسعد فى دنياها بما سعد به المترفون بل حرموا أنفسهم فى سبيل مرضاة ربهم ، والسعادة الحقيقة فى جنات النعيم وما ذلك إلا لأنهم عرفوا حقيقة الدنيا وأيقنوا إنها فانية ، ومتاعها قليل ، والذي يحصل عليه الإنسان من هذا القليل قليل ، فالمرء فى حياته الدنيوية يحصل من القليل قليلاً .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ [سورة النساء :٤٩]

فهؤلاء الذين فطنوا إلى حقيقة الدنيا ، وإنها فانية فأدركوا أن السعادة الحقة هى سعادة الآخرة ، فيقول الله – عزوجل : ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ ﴾ [سورة الذاريات١٥ :١٦] .

فهم فى بساتين وارفة الظلال وعيون جارية ، راضين بما حباهم ربهم من الكرامة، والنعيم والتمتع بالحور العين اللاَّتي قال فى وصفهن رسول الله – صلى الله عليه وسلم :- " لوابتسمت إحداهن لأضاءت ما بين المشرق والمغرب " يرى مخ ساقها ، وما استحقوا ذلك النعيم إلاَّ لأنهم كانوا محسنين فى الدنيا فنالوا جزاءهم فى الآخرة .

أوهم فى عاجلهم فى جنات وصلهم وفى آجلهم فى جنات فضلهم ، درجات ونجاة ، واليوم قربات ومناجاة ، فما هو مؤجل حق أنفسهم ، وما هو معجل حق ربهم . هم

---

1 - مختصر بن كثير جـ ٣ ، ص ٣٥٧ .
- البيضاوي جـ ٣ ، ص ٣٦٥ ، ص ٣٧٥ .
- حاشية البيضاوي .
- أسباب النزول ، للسيوطي .
- مختصر بن كثير جـ ٣،ص ٣٦٤ ، ص ٣٦٧ ، ص ٣٦٩ .
- حاشية شيخ زادة على البيضاوي جـ٣ ، ص ٣٧٥ .
- القرطبي جـ٩ ، ص ٦١٢٠ وما بعدها .
- لطائف الإرشادات للقشيرى ص ٤٣٧ و ما بعدها .
- البحر المديد لابن عجيبة جـ ٥ ، ص ٤١٧ و ما بعدها .

آخذين اليوم ما آتاهم ربهم ، يأخذون نصيبهم منه بيد الشكر والحمد ، و غداً يأخذون ما يعطيهم ربهم فى الجنة من فنون العطاء والرفد و من كان اليوم آخذه بلا واسطة من حيث الإيمان والإتقان ، وملاحظة القسمة فى العطاء والحرمان ، كان إذا أخذه بلا واسطة فى الجنان عند اللقاء والعيان " إنهم كانوا قبل ذلك محسنين " كانوا ، ولكنهم باتوا فالعارف كائن بائن وهذا رأى " يحيي بن معاذ " (١) .

والمعنى :

" أنه وإن بدا بين الناس يشاركهم و يباشرهم إلاَّ أنه مشتغل عنهم بمعرفه لا يشغل عنه طرفة عين " ولكنهم بعد ما أعدناهم حصلوا واستبانوا فهم كما فى الخبر " أُعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك ، واحسب نفسك فى الموتى ، واتق دعوة المظلوم " وكذلك رواه " الطبرانى " و " البيهقى " عن معاذ بلفظ " اعبد الله ولا تشرك به شيئا ، واعمل كأنك تراه ، وأعد نفسك فى الموتى" فهؤلاء الذين استحقوا الجزاء و كانوا محسنين فى الدنيا بالعمل الصالح والعبادة و حرمان أنفسهم من التمتع بنعيم الدنيا ناظرين لنعيم الآخرة والنعيم الدائم ، ثم يذكر طرفاً من إحسانهم فيقول : " كانوا قليلاً من اللَّيل ما يهجعون " فقد كانوا ينامون قليلاً ، ويصلون أكثر اللَّيل ، يعنى ينامون أُقَلّهُ ويعبدون أكثره.

﴿ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [سورة الأعراف :٥٦].

يعنى خوفاً من عذابه وطمعاً فى رحمته . يقول الحسن " كَابَدوا قيام اللَّيل لا ينامون منه إلاَّ قليلا " و يهجعون يعنى " ينامون " والهجوع هوالنوم ليلا والتهجاع النومة الخفيفة .

1 - الرسالة القيسرية ، ص ١٧٥ ، حلية الأولياء عن زيد بن الأرقم .

يقول أبو قيس الأسلت :

قد خصيت البيضة رأيي فما   أطعم نوما غير تهجاع

ويقول الشاعر : عمرو بن معدي كرب يتشوق أخته ، وكان قد أسرها الصمة أبو دريد بن الصمة :

أمن ريحانة الداعي السميع   يؤرقني وأصحابى مجوع

فيقال : هجع ، يهجع هجوعاً ، وهبغ بالباء يهبغ ، هبوغا بالغين .

إذا نام . والمعنى : ينامون قليلاً من اللَّيل ، ويصلون أكثره .

يقول " عطاء " وهذا لما أمروا بقيام اللَّيل. وكان الصحابي الجليل " أبو ذر الغفاري " – رضي الله عنه – يحتجز ويأخذ العصا فيعتمد عليها حتى نزلت الرخصة فقال تعالى : ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ۝٣﴾ [سورة المزَّمل٢ :٣]

وذلك مثل قوله تعالى : ﴿ ..... وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴾ [سورة سبأ :١٣]

﴿وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ﴾ [سورة الذاريات :١٨]

فهؤلاء القوم مع دعائهم وتهجدهم ينزلون أنفسهم فى الأسحار منزلة العصاة فيستغفرون استغفاراً لقدرهم ، واحتقاراً لفعلهم ، واللَّيل للأحباب فى أنس المناجاة وللعصاة فى طلب النجاة ، والسهر لهم فى لياليهم دائماً إما لفرط أسف ، أو لشدة لهف وأما الاشتياق ، أو لفراق – كما قالوا :

كم ليلة فيك لا صباح لها   أفنيتها قابضاً على كبدي

قد عصت العين بالدموع وقد   وضعت خدي على بنان يدي

وأما لكمال أنس وطيب روح – كما قالوا :

سقى الله عيشا قصيراً مضى   زمان الهوى فى الصبا والمجون

لياليه تحكى انسداد لحاظ   لعيني عند ارتداد الجفون

فهم مع إحسانهم يعدون أنفسهم مذنبين ، ولذلك يكثرون الاستغفار بالأسحار .

ويقول أبوالسعود :

" أى هم مع قلة نومهم ، و كثرة تهجدهم يداومون على الاستغفار بالأسحار ، كأنهم أسلفوا ليلهم باقتراف الجرائم ، وهذا مدح ثان للمحسنين .

والمدح الثالث للمحسنين هو قوله – عز وجل:-

﴿ وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ١٩ ﴾ [سورة الذاريات :١٩]

يعنى وفى أموالهم نصيب معلوم قد أوجبوه على أنفسهم بمقتضى الكرم للسائل المحتاج ، وللمتعفف الذى لا يسأل لتعففه .

وفى الأرض دلائل واضحة على قدرة الله – عز وجل – ووحدانيته للموقنين بالله وعظمته والذين يعرفونه بصنعه .

يقول ابن كثير :" وفى الأرض من الآيات الدالة على عظمته خالقها ، وقدرته الباهرة ، مما فيها من صنوف النباتات والحيوانات والجبال والقفار ، والبحر ، والأنهار واختلاف السنة الناس وألوانهم و ما بينهم من اتفاق فى العقول والفهوم والسعادة والشقاوة ، وما فى تركيبهم من الخلق البديع .

ولهذا قال بعده مباشرة : ﴿ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴾ [سورة الذاريات :٢١] .

يعنى وفى أنفسكم آيات وعبر من مبدأ خلقكم إلى منتهاه ، أفلا تبصرون قدرة الله فى خلقكم لتعرفوا قدرته على البعث ؟ .

يقول ابن عباس - رضي الله عنها – يريد اختلاف الصور ، والألسنه والألوان والطبائع ، والسمع ، والبصر ، والعقل إلى غير ذلك من العجائب المودعة فى ابن آدم .

ويقول " قتادة " - رضي الله عنه : من تفكر فى خلق نفسه عرف انه إنما خلق ولينت مفاصله للعبادة و يقول " القرطبي " – رحمه الله تعالى – يقول محمد بن سيرين وقتادة : المراد بالحق هنا الزكاة المفروضة .

وقيل : إنه حق سوى الزكاة يصل به رحماً ، أو يقرى به ضيفا أو يحمل به كلا أو يغنى به محروما .

وقاله أيضا ابن عباس - رضي الله عنهما – لأن السورة مكية ، وُفُرِضَتْ الزكاة بالمدنية .

والأقوى فى هذه الآية إن المراد بها الزكاة، لقوله تعالى فى"سورة المعارج " :

﴿ وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ١٩ ﴾ [سورة الذاريات :١٩].

والحق المعلوم هو " الزكاة " التى بين الشرع قدرها و وقتها .

أما غيرها فليس معلوماً لأنه غير مقدر ، ولا مجنس ، ولا مؤقت بوقت معلوم وقال : المحروم هو من حرم المال .

ويقول صاحب " لطائف الإشارات " :

" كما أَنَّ الأرضَ تحمل كلَّ شيء فكذلك العارف يتحمَّل كلَّ أحد .

ومَنْ استثقل أحداً أو تبرَّمَ برؤية أحدٍ فلِغَيْبته عن الحقيقة ، ولمطالعته الخَلْقَ بعين التفرقة - وأهلُ الحقائق لا يتصفون بهذه الصفة . ومن الآيات التي في الأرض أنها يُلْقَى عليها كلُّ قذارةٍ وقمامة - ومع ذلك تُنْبِتُ كلَّ زَهْرٍ ونَوْرٍ . . .

كذلك العارفين يتشرب كلَّ ما يُسْقَى من الجفاء ، ولا يترشح إلاَّ بكل خُلُقٍ عَلِيّ وشيمةٍ زكيَّة .

يقول الإمام " الجنيد " الصوفي كالأرض يطرح عليها كل قبيح ولا يخرج منها إلا كل مليح " ، وقال أيضا – رحمه الله تعالى :" الصوفي كالأرض يطأها البَرُ والفاجر " .

ومن الآيات التي في الأرضِ أنّ ما كان منها سبخاً يُتْرَكُ و لا يُعَمَّر لأنه لا يحتمل العمارة- كذلك الذي لا إيمانَ له بهذه الطريقة يُهْمَل ، فمقابلته بهذه الصفة كإلقاء البذر في الأرض السبخة ، التى لا تصلح للزراعة والإنبات فإلقاء البذر فيها مضيعة للبذور والوقت أيضا . ﴿ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٢١ ﴾ [سورة الذاريات :٢١].

أي وفي أنفسكم أيضاً آيات ، فمنها وقاحتها في همتها ، ووقاحتها في صفاتها ومنها دعواها العريضة فيما ترى منها وبها ، ومنها أحوالها المريضة حين تزعم أَنَّ ذَرّةً أو بها أو منها .

ومن الأخلاق القرآنية الكريمة أن ينظر الإنسان الى نفسه ، فإن النظر إلى النفس فيه آيات وعبر وعظات ، وأدعى إلى معرفة الخالق معرفة حقيقية فيكون ذلك طريقاً لمعرفة الله – سبحانه و تعالى – وتوحيده ، وتعظيمه وإجلاله – جل فى عُلاَه – .

وعن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ويل للأغنياء من الفقراء يوم القيامة يقولون ربنا ظلمونا حقوقنا التي فرضت لنا عليهم فيقول الله تعالى وعزتي وجلالي لاقربنكم ولابعدنهم) ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم (وفي أموالهم حق للسائل والمحروم) [١].

1- القرطبي جـ ٩ ، ص ٦٢٠٥ ، ص ٦٢٠٩ .

" إجتناب كبائر الاثم "

ومن الأخلاق القرآنية والتى أمرنا بها الله – سبحانه و تعالى – فى كتابه العزيز قوله تعالى :

﴿ ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلۡمَغۡفِرَةِۚ هُوَ أَعۡلَمُ بِكُمۡ إِذۡ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَإِذۡ أَنتُمۡ أَجِنَّةٞ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡۖ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴾ [سورة النجم :٣٢]

وفى الآية نعت للمحسنين الذين لا يرتكبون كبائر الإثم .

وكبائر الإثم هى " الشرك بالله ، و فهو أكبر الآثام ، وأعظم الذنوب ، وقرأ الأعمشى ويحيي بن وثاب وحمزة والكسائى " كثير الإثم " على التوحيد ، و فسره ابن عباس - رضي الله عنهما – " بالشرك " والفواحش " الزنا " ويقول " مقاتل " كبائر الإثم " كل ذنب ختم بالنار ، والفواحش هى : كل ذنب وجب فيه الحد واللَّمم هى الصغائر والتى لا يسلم من الوقوع فيها أحد إلا من عصمه الله – سبحانه و تعالى – و قد اختلف فى معنى " اللمم " فيقول أبو هريرة وابن عباس والشعبي " اللمم " كل ما دون الزنى .

ويذكر لنا " مقاتل بن سليمان " إن هذه الآية نزلت فى رجل كان يسمى "نبهان التمار " ، كان له حانوتاً يبيع فيه تمراً، فجاءته امرأة تشتري منه تمراً فقال لها: إن داخل الدكان ما هو خير من هذا، فلما دخلت راودها فأبت وانصرفت فندم نبهان، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله ! ما من شيء يصنعه الرجل إلاَّ وقد فعلته إلاَّ الجماع، فقال : لعل زوجها غازٍ ، أى من الغازين فى سبيل الله فنزلت هذه الآية آنفة الذكر.

و قد قال بهذا القول ، ابن مسعود ، وأبو داوود ، وأبو سعيد الخدرى وحذيفة ومسروق – رضي الله عنهم أجمعين :-

أن اللَّمم هو ما دون الوطء من القبلة والغمزه ، والنظرة ، والمضاجعة يعنى النوم بجوار المرأة دون معاشرتها .

وروى عن مسروق عن عبد الله بن مسعود قال: زِنــاَ العينين النظر، وزنا اليدين البطش، وزنا الرجلين المشي، وإنما يصدق ذلك أو يكذبه الفرج، فإن تقدم كان زنا وإن تأخر كان لمما.

وإنما يصدق ذلك ويكذبه " الفرج " يعنى" الزنا " فإذا ارتكب جريمة الزنا فيكون ما عداه هو" اللمم " ، ولكن إن فعل الفعل فهو" زنا " ، وَقَانَا الله السوء .

وفي صحيح البخاري ومسلم عن ابن عباس قال: ما رأيت شيئا أشبه باللمم مما قال أبو هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إن الله كتب على ابن آدم حظه من الزنا أدرك ذلك لا محالة فزنا العينين النظر وزنا اللّسان النطق والنفس تتمنى وتشتهي والفرج يصدق ذلك أو يكذبه). يعنى إن فعل فهو" زنا " وإلا فلا .

عن النبي صلى اللّه عليه وسلم قال: (كتب على ابن آدم نصيبه من الزنا مُدْرِك لا محالة فالعينان زناهما النظر والأُذُنان زناهما الاستماع واللّسان زَنَــاهُ الكلام و اليد زناها البطش والرجل زناها الخُطى والقلب يهوى ويتمنى ويصدق ذلك الفرج ويكذبه).

وقال ابن عباس أيضا: هوالرجل يلم بذنب ثم يتوب.

قال: ألم تسمع النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول: إن يغفر الله يغفر جما وأي عبد لك لا أَلَما.

وقيل اللمم هو: أن تفعل الذنب ثم لا تعاوده .

وقال الشاعر :

إن يغفـــر الله يغفـــر جمـــا وأي عبـــد لـــك لا ألمـــا

دليل هذا التأويل قوله تعالى:

﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ ... ﴾

[سورة آل عمران:١٣٥]

ثم قال: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ .... ﴾ [سورة آل عمران :١٣٦].

فضمن لهم المغفرة. كما قال عقيب : اللمم: (إن ربك واسع المغفرة) فعلى هذا التأويل يكون (إلا اللمم) استثناء متصلاً و ليس منقطعاً، قال عبد الله ابن عمرو بن العاص: اللمم ما دون الشرك.

وقال سعيد ابن المسيب: هو ما ألم على القلب، أي خطر.

وقال محمد بن الحنفية – رضي الله عنه :- كل ما هممت به من خير أو شر فهو لم.

ودليل هذا التأويل قوله عليه الصلاة والسلام: (إن للشيطان لمه وللملك لمه) .

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ .... ﴾ [سورة آل عمران :١٣٦].

يعنى لمن تاب من ذنبه واستغفر.

وقال أبو ميسرة عمرو بن شرحبيل وكان من أفاضل أصحاب ابن مسعود: رأيت في المنام كأني دخلت الجنة فإذا قباب مضروبة، فقلت: لمن هذه ؟ فقالوا: لذي الكلاع وحوشب، وكانا ممن قتل بعضهم بعضا، فقلت: وكيف ذلك ؟ فقالوا: إنهما لقيا الله فوجداه واسع المغفرة.

فقال أبو خالد: بلغني أن ذا الكلاع أعتق اثني عشر ألف بنت.

قال: والعرب تقول ما يأتينا لما ماء، أي في الحين بعد الحين.

و قال الشاعر :

بزينب ألمم قبل أن يرحل الركب وقل إن تملينا فما ملك القلب

والله – سبحانه و تعالى – أعلم بأحوالكم منكم قبل أن يخلقكم ، و من حين أن خلق أباكم آدم من تراب ، و من حين إن كنتم مستترين فى أرحام أمهاتكم .

فهو – سبحانه و تعالى – يعلم التقى ، والشقي ، والمؤمن ، والكافر ، والبر والفاجر علم ما تفعلون ، وإلى ماذا تصيرون . فلا تدخلوا أنفسكم على سبيل الإعجاب ، ولا تشهدوا لها بالكمال والتقى ، فان النفس خسيسة إذا مدحت اغترت و تكبرت .

ويقول " أبو حيان :" لا تنسبوها الى الطهارة عن المعاصي ، ولا تثنوا عليها ، فقد علم الله منكم الزكي ، والتقى قبل إخراجكم من صلب آدم – عليه السلام – وقبل إخراجكم من بطون أمهاتكم .

فاللّٰه – سبحانه وتعالى – عالم بمن أخلص العمل ، واتقى ربه فى السِرْ والعلن .

وقال بعضهم أن استثناء " اللَّمم " استثناء منقطع لأن اللَّمم ليس من كبائر الإثم ولا من الفواحش فالاستثناء بمعنى الاستدراك .

ووجهه أن ما سمي باللَّمم ضرب من المعاصي المحذر منها في الدين ، فقد يظن الناس أن النهي عنها يلحقها بكبائر الإثم فلذلك حق الاستدراك ، وفائدة هذا الاستدراك عامةً وخاصةً : أما العامة فلكي لا يعامِل المسلمون مرتكب شيء منها معاملة من يرتكب الكبائر ، وأما الخاصة فرحمةً بالمسلمين الذين قد يرتكبونها فلا يَقُل ارتكابها من نشاط طاعة المسلم ، ولينصرف اهتمامه إلى تجنب الكبائر . فهذا الاستدراك بشارةً لهم ، وليس المعنى أن اللّٰه رخص في إتيان اللَّمم .

وقد أخطأ وضاح اليَمن في قوله الناشئ عن سوء فهمه في كتاب اللّٰه وتطفله في غير صناعته :

فما نوَّلَتْ حتى تضرعتُ عندها — وأنبأتُها ما رَخَّص الله في اللَّمم

واللَّمم : الفعل الحرام الذي هو دون الكبائر والفواحش .

إن ربك واسع المغفرة ، حيث إنه يغفر الصغائر باجتناب الكبائر .

وهو عالم بأحوالكم حيث أنشأكم ويعرف ما كان ، وما يكون ، وما سيكون إلى يوم الدين (١).

1- روح المعاني للالوسى ، جـ١٥ ، ص ٩٤ و ما بعدها ، ط دار الفكر سنة ١٤١٤ هـ ١٩٩٤ م .
- التحرير والتنوير للشيخ محمد الطاهر عاشور ، جـ ٢٧ ، ص ٤١٩ و ما بعدها .
- القرطبي جـ ٩ ، ص ٦٢٧٥ و ما بعدها .
- تفسير أبوالسعود جـ ٥ ، ص ١٦٠ .
- تفسير ابن الجوزى ، جـ ٨ ، ص ٧٥ .
- القرطبي جـ ١٧ ، ص ١٠٦ .
- مختصر ابن كثير جـ ٣ ، ص ٤٠٣ .
- تفسير البيضاوي جـ ٤ ، ص ١٧٣ .
- تفسير البحر المحيط جـ ٨ ، ص ١٦٥ ، ص ١٥٥.
- لطائف الإشارات للإمام القشيرى جـ٣ ، ص ٤٨٧ و ما بعدها .
- تفسير النسفى جـ ٤ ص ١٩٨ و ما بعدها .

" المسارعة إلى العمل الصالح "

ومن الأخلاق القرآنية ما نجده في" سورة الحديد " في قوله تعالى :

﴿ سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾ [سورة الحديد :٢١].

والمعنى " سارعوا بالأعمال الصالحة التى توجب المغفرة لكم من ربكم و قيل : سارعوا بالتوبة لأنها تؤدى إلى المغفرة ، وقيل المراد بالمسارعة التكبيرة الأولى مع الإمام وقيل " الصف الأول " ، وقيل سارعوا إلى جنة فسيحة عرضها مثل عرض السماوات والأرض مجتمعة .

يُشَبْه الله تعالى الجنة بعرض السماوات السبع والأرضين السبع ولا ريب أن طولها أكبر من عرضها ، فذكر العرض تنبيها على أن طولها أضعاف ذلك .

ويقول " البيضاوي " : " إذا كان العرض كذلك فما ظنك بالطول " .

ويقول " ابن كيسان " عن جنة واحدة من الجنات ، والعرض أقل من الطول ومن عادة العرب إنها تعبر عن سعة الشيء بعرضه دون طوله .

قال الشاعر :

كأن بلاد الله وهى عريضة ... على الخائف المطلوب كفة حابلٍ

وفى هذا دليل على أن الجنة مخلوقة وهو رأى ابن القيم و كذلك الأشاعرة والسلف يرون أن الجنة والنار مخلوقتان الآن وانهما باقيتان .

ويقول " الألوسى " سابقوا إلى مغفرة من ربكم " يعنى سارعوا مسارعة السابقين لأقرانهم ولداتهم وأمثالهم فى المضمار الى أسباب مغفرة عظيمة كائنة من ربكم – عز وجل- .

والكلام على سبيل "الاستعارة" أو "المجاز المرسل " واستعمال اللَّفظ فى لازم معناه وإنما لزم ذلك ، لأن اللاَّزم أن يُبَادر من يعمل ما يكون سبباً للمغفرة ودخول الجنة لا أن يعمله ، أو يتصف بذلك سابقاً على آخر.

وقيل : المراد سابقوا ملك الموت قبل أن يقطعكم بالموت عن الأعمال الموصلة لما ذكر وقيل : سابقوا إبليس قبل أن يصدكم بغروره وخداعه عن ذلك وهو كما ترى .

والمراد بتلك الأسباب الأعمال الصالحة على اختلاف أنواعها ، وعن عَلِيّ كرم الله تعالى وجهه أنه قال في الآية : كن أوّل داخل المسجد وآخر خارج ، وقال عبد الله : كونوا في أول صف القتال . وقال أنس : اشهدوا تكبيرة الإحرام مع الإمام وكل ذلك من باب التمثيل واستدل بهذا الأمر على أن الصلاة بأول وقتها أفضل من التأخير .

وعبر عن العناية والاهتمام بفعل السابقة لإلهاب النفوس بصرف العناية بأقصى ما يمكن من الفضائل كفعل من يُسَابق غيره إلى غاية فهو يحرص على أن يكون المجلِّي ولأن المسابقة كناية عن المنافسة،أي واتركوا المقتصرين على متاع الحياة الدنيا في الأُخريات والخوالف .

وتنكير { وَمَغْفِرَةٌ } لقصد تعظيمها ولتكون الجملة مستقلة بنفسها ، وإلا فإن المغفرة سبق ذكرها في قوله : { وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ }

فكان مقتضى الظاهر أن يقال : سابقوا إلى المغفرة ، أي أكثروا من أسبابها ووسائلها : فالمسابقة إلى المغفرة هي المسابقة في تحصيل أسبابها .

والعَرْض : مستعمل في السعة وليس مقابل الطُول لظهور أنه لا طائل في معنى ما يقابل الطول ، وهذا كقوله تعالى :

﴿ ....وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴾ [سورة فصلت :٥١].

وقول العُديل لما فَرَّ من وعيد الحجاج : -

ودون يد الحجاج من أن تنالني بساط بأيدي الناعجات عَريض

وتشبيه عَرْض الجنة بعَرْض السماء والأرض ، أي مجموع عرضيهما لقصد تقريب المشبه بأقصى ما يتصوره الناس في الاتساع ، وليس المراد تحديد ذلك العرض ولا أن الجنة في السماء حتى يقال : فماذا بقي لمكان جهنم .

وهذا الأمر شامل لجميع المسابقات إلى أفعال البر الموجبة للمغفرة ونعيم الجنة وشامل للمسابقة الحقيقية مع المجازية على طريقة استعمال اللَّفظ في حقيقته ومجازه وهي طريقة شائعة في القرآن إكثاراً للمعاني .

ومنه الحديث : « لو يعلم الناس ما في الصف الأول لاستبقوا إليه أو استهموا إليه »

وليس في الآية دليل على أن الجنة غير مخلوقة الآن إذ وجه الشبه في قوله :

﴿... كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ... ﴾ [سورة الحديد :٢١]

هو السعة لا المقدار ولا على أن الجنة في السماء الموجودة اليوم ولا عدمه وتقدم من معنى هذه الآية قوله : ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ...﴾ [سورة آل عمران :١٣٣]

وظاهر قوله : {... أُعِدَّتْ ... }

أن الله خلقها وأعدّها لأن ظاهر استعماله الفعل في الزمان الماضي إن حصل مصدره فيه ، فقد تمسك بهذا الظاهر الذين قالوا : إن الجنة مخلوقة الآن وأما الذين نفوا ذلك فاستندوا إلى ظواهر أخرى .

وعُلم من قوله : ﴿..أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ... ﴾ [سورة الحديد :٢١]

أن غيرهم لاحظَ لهم في الجنة لأن معنى إعداد شيء لشيء قصره عليه . وجَمْع الرسل هنا يشمل كل أمة آمنوا بالله وبرسولهم الذي أرسله الله إليهم ، وليس يلزمها أن تؤمن برسول أرسل إلى أمة أخرى ولم يَدْع غيرها إلى الإيمان به .

والإشارة في ﴿..ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ .. ﴾ [سورة الحديد :٢١]. إلى المذكور من المغفرة والجنة .

﴿....ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾

وفي ذلك ردٌّ على من يقول :

« إن الجنة مُستَحقَّةٌ على الطاعات ، ويجب على الله إيصالُ العبدِ إليها » .

وهذا رأى المعتزلة الذين عدوا ذلك من مقتضيات العدل الالهى . والصحيح انه لن يدخل الجنة أحد بعمله .

لقول رسول الله – صلى الله عليه وسلم :-

" لن يدخل أحدكم عَمَلَهُ الجنة ، قالوا : و لا أنت يا رسول الله .

قال : و لا أنا إلا أن يتغمدني الله بفضل منه ورحمة . " [1].

فالجنة فضل الله على العبد ، والفضل لا يكون واجباً .

﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ ﴾ [سورة آل عمران ١٣٣ :١٣٤] .

فالجنة لا تُنال و لا تُدْخَل إلا برحمة من الله تعالى و فضله .

فهو عطاء الله الواسع يتفضل به على من يشاء من عباده ، والله – عز وجل – ذوالعطاء الواسع والإحسان الجليل .

هذا هو القرآن الكريم الذى يأمر بالأخلاق الحسنة ، خوفاً من الله – عز وجل – وطمعاً فى رحمته ، فلو ان المسلمين تخلقوا بأخلاق القرآن الكريم لقادوا وسادوا ولأصبحوا ظاهرين على جميع الأمم ومنتصرين على كل الأعداء واستعادوا مجدهم وعزتهم ، وسيادتهم ، وكيانهم ، واستعادوا أيضا أراضيهم المحتلة و مقدساتها المغتصبة و دان لهم القاصي والداني :

ودانت لنا الدنيا نقود زمامها	بقوة حق لا بلين قناته
بحولة إيمان وصوله مصحف	بجد سيف لا يفل شبابه
اؤلئك ابآئى وتاريخ أُمتى	وذلك ديني فى ربيع حياته [2]

1 - صحيح البخاري و مسلم .
2 - صفوة التفاسير للصابوني ، جـ ٣ ، ص ٣٢٨ .
- التفسير الكبير جـ ٢٩ ، ص ٢٣٤.
- البحر المحيط ، جـ ٨ ، ص ٢٢٥.
- تفسير البيضاوي ، جـ ٣ ، ص ٤٥٤.
- التسهيل لعلوم التنزيل جـ ٤ ، ص ٩٩ .
- التحرير والتنوير جـ ٢٧ ، ٢٨ ، ص ١٥٧ و ما بعدها .
- تفسير القرطبي جـ ، ص ٦٤٢٦ .
- لطائف الإشارات جـ ٣ ، ص ٥٤٢ و ما بعدها .
- روح المعاني للالوسى المجلد رقم ١٥ ، ص ٢٨٤ و ما بعدها .

" البعد عن أسباب التباغض "

ويمضى القرآن الكريم فى تبصيره للمؤمنين بالأخلاق القرآنية الكريمة التى يجب أن يتحلى بها المؤمن ليكون قدوة لغيره فى السلوك والعمل .

وقد امتدح الله – عز وجل – نبيه محمد – صلى الله عليه وسلم – فى القرآن الكريم فخاطبه بقوله : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ [سورة القلم :٤]

وفى هذه الآية و هى قوله تعالى :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَنَـٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَـٰجَوْا۟ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَـٰجَوْا۟ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [سورة المجادلة :٩].

فهذه الآية خطاب للمنافقين الذين يظهرون الإيمان و يبطنون النفاق والكفر فعاملهم الله بما أظهروه ، و ناداهم بوصف الذين آمنوا كما قال – سبحانه و تعالى :

﴿ ..ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ ... ﴾ [سورة المائدة :٤١]

ومنه ما حكاه الله عن المشركين و هو قوله – عز وجل :

﴿ وَقَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ ﴾ [سورة الحجر :٦].

يعنى يا أيها الذى نزل عليه الذكر بزعمه ، ثم ينبهم إلى تدارك حالهم وذلك يكون بالإقلاع والنأي عن آثار النفاق على عادة القرآن الكريم من تعقيب التخويف بالترغيب والسر فى ذلك هوان المنافقين كانوا يعملون بعمل أهل الإيمان وذلك يكون إذا لقوا الذين آمنوا ، فإذا رجعوا الى قومهم غلب عليهم الكفر فكانوا فى بعض أحوالهم مقاربين الإيمان بسبب مخالطتهم للمؤمنين ، ولذلك ضرب الله مثلا بالنور **فى قوله تعالى :**

﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَـٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴾ [سورة البقرة :١٧] .

ثم قال سبحانه :

﴿ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ ﴾ [سورة البقرة :٢٠]

وهذا المناسب لقوله تعالى : ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [سورة المجادلة :٩]

ويكون قوله تعالى : ﴿....وَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ تنبيها على ما يجب عليهم إن كانوا متناجين لا محالة .

ويجوز أن تكون خطاباً للمؤمنين الخلّص بأنْ وجه الله الخطاب إليهم تعليماً لهم بما يحسن من التناجي وما يقبح منه بمناسبة ذم تناجي المنافقين فلذلك ابتدئ بالنهي عن مثل تناجي المنافقين وإن كان لا يصدر مثله من المؤمنين تعريضاً بالمنافقين ، مثل قوله تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُوا۟ غُزًّى لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ ﴾ [سورة آل عمران :١٥٦].

ويكون المقصود من الكلام هو قوله:

﴿...وَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ .. ﴾ [سورة المجادلة:٩] تعليماً للمؤمنين .

وقوله تعالى : "إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ" يومئ إلى أنه لا ينبغي التناجي مطلقاً ولكنهم لما اعتادوا التناجي حُذروا من غوائله ومغياته ، وعواقبه الوخيمة ، وانما كان ذلك منهم قبيحا وانما عظيماً حَظْرَه ، وجليلا ذنبه لأنه تضمن إفساد ذات البين ، وخير الأمور ماعداه بإصلاح ذات البين .

﴿ .... وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾ ﴾ .يعنى : وخافوا الله بامتثالكم أوامره واجتنابكم لنواهيه الذى سيجمعكم ليوم لا ريب فيه ، و يجازى كلاً بعمله .

والنجوى إنما تكون من تزيين الشيطان ليُحزن الذين آمنوا ، وإذا كانت المشاهدة غالبة ، والقلوب حاضرة ، والتوكل صحيح ، والنظر من موضعه صائباً فلا تأثير لمثل هذه الحالات ، وإنما هذا للضعفاء .

والآية أيضا فيها تسلية للمؤمنين ، وأنس لنفوسهم ويزول به ما يلحقهم من الحزن لمشاهدة نجوى المنافقين على اختلاف مذاهب نفوسهم ، إذا رأوا المتناجين فى عديد الظنون والتخوفات .

وذلك ليس بضار المؤمنين بإذن الله – سبحانه و تعالى - وعلى الله فليتوكل المؤمنون .

يقول ابن كثير – رحمه الله تعالى : " إنما يصدر هذا من المتناجين عن تسويل الشيطان وتزيينه " .

يعنى يسوله ويزين له فعل هذا القُبْح من الآثام والذنوب ، و ليس هذا التناجي بضار للمؤمنين شيئا إلا بمشيئة الله وإرادته ، وعلى الله فليعتمد و يتوكل المؤمنون بالله ورسوله ، ولا يبالوا بنجوى المنافقين ، فإن الله يعصمهم ويحفظهم من شرورهم ومكايدهم وفى الحديث : " **قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:** "إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجَينَّ اثنان دون صاحبهما، فإن ذلك يحزنه".

أرأيت الخلق الذى يأمر به القرآن، ورسولنا خير الأنام–صلى الله عليه وسلم؟!!! .

لا يتناجى و لا يتحدث اثنان ومعهما ثالث فإن ذلك يورث الحزن والهم وذلك يجعله يظن بالمتحدثين السوء . فذلك خلق قرآني راق لا يبلغ شأنه و لا يفطن إلى مثل هذه الآداب غير القرآن الكريم وسنة سيدنا " محمد " – صلى الله عليه وسلم - .

وهى أيضا توجيهات راشدة و فوائد نافعة فى الدنيا والآخرة .

فمن اهتدى بهداها ، واستمسك بها هداه الله إلى صراط مستقيم .

ولكمال رحمته – سبحانه و تعالى - بهم وتمام رأفته عليهم ، علمهم مراعاة حسن الأدب بينهم فيما كان من أمور العادة ، دون أحكام العبادة فى التفسح فى المجالس والنظام فى حال الزحمة والكثرة ، واعزز بقوم أمرهم بدقائق الأشياء بعد قيامهم بأصول الدين ، وتحققهم بأركانه .

" أسباب المحبة والمودة "

وذلك فى قوله – عز وجل – :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ فَٱفۡسَحُواْ يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ١١ ﴾

[سورة المجادلة :١]

لما نهى الله تعالى عباده المؤمنين عما يكون سبباً للتباغض والتنافر أمرهم بما يصير سبباً لزيادة المحبة والمودة ، و هوالتوسع فى المجالس ، وذلك بأن يوسع بعضهم لبعض فى المجالس والسبب فى نزول هذه الآية الكريمة ما يرويه لنا " مقاتل " قال : كان عليه السلام يوم الجمعة في الصفة ، وفي المكان ضيق ، وكان يكرم أهل بدر من المهاجرين والأنصار، فجاء ناس من أهل بدر، يعنى من الذين حضروا غزوة بدر وفيهم " قيس بن ثابت " – رضي الله عنه – وقد سبقوا إلى المجلس ، فقاموا حيال النبي – صلى الله عليه وسلم – ينتظرون أن يوسع لهم فعرف رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ما يحملهم على القيام وَشُق ذلك على الرسول ، فقال لمن حوله من غير أهل بدر: قم يا فلان ، قم يا فلان ، فلم يَزَل يقيم بعدة النفر الذين هم قيام بين يديه وشق ذلك على من أقيم من مجلسه، وعرفت الكراهية في وجوههم ، واستغل ذلك الموقف المنافقون وطعنوا في ذلك وانتهزوا الفرصة للإيقاع بين المسلمين فقد حانت الفرصة لديهم ، وما كان لهؤلاء من الذين يتركون مثل هذه الفرصة فاستغلها المنافقون وقالوا : والله ما عدل على هؤلاء ، إن قوماً أخذوا مجالسهم وأحبوا القرب منه فأقامهم وأجلس من أبطأ عنه ، فنزلت هذه الآية من الله – عز وجل – .

وفى ذلك توجيه قرآني وخلق أَمَرَنا الله به ، لغرس المودة والمحبة بين المسلمين ليعيشوا فى سعادة يحب بعضهم بعض ، واحترام بعضهم لبعض ، فقال تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ فَٱفۡسَحُواْ يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴾

[سورة المجادلة :١١]

وصدرت الآية بنداء من الله تعالى و ذلك بأكرم وصف ، وألطف عبارة يعنى يا من صدقتم بالله ورسوله و تحليتم و تربيتم بالإسلام إذا قيل لكم توسعوا فى المجالس سواءً أكان مجلس الرسول – صلى الله عليه وسلم – ، أواى مجلس غيره فوسعوا وأفسحوا يوسع لكم ربكم فى رحمته وجنته .

ويقول " مجاهد " كانوا يتنافسون فى مجلس النبي – صلى الله عليه وسلم – فأمروا أن يفسح بعضهم لبعض .

ويقول " الخازن" أمر الله المؤمنين بالتواضع ، وأن يفسحوا فى المجلس لمن أراد الجلوس عند النبي – صلى الله عليه وسلم – ليتساوى الناس فى الأخذ من حظهم من رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وفى الحديث :-

" لا يقيمن أحدكم رجلاً من مجلسه ثم يجلس فيه ، ولكن توسعوا وتفسحوا يفسح الله لكم " (١).

ويقول الإمام " فخر الرازي " يفسح الله لكم مطلق فى كل ما يطلب الناس الفسحة فيه من المكان ، والرزق والصدر ، والقبر ، والجنة ، والآية تدل على أن كل من وسع على عباد الله أبواب الخير والراحة وسع الله عليه خيرات الدنيا والآخرة . وفى الحديث " لا يزال الله فى عون العبد ما زال العبد فى عون أخيه "

ويقول الإمام " ابن كثير " فى هذه الآية الكريمة حكم القيام للقادم ، فقال ابن كثير – رحمه الله – وقد اختلف الفقهاء في جواز القيام للوارد إذا جاء على أقوال : فمنهم من رخص في ذلك محتجاً بحديث " قوموا إلى سيدكم " ومنهم من منع من ذلك محتجاً

---

1 - أخرجه البخاري ومسلم .

بحديث " من أحب أن يتمثل له الرجال قياما فليتبوأ مقعده من النار " ، ومنهم من فصل فقال يجوز عند القدوم من سفرٍ وللحاكم في محل ولايته كما دل عليه قصة سعد بن معاذ فإنه لما استقدمه النبي حاكما في بني قريظة فرآه مقبلاً قال للمسلمين " قوموا إلى سيدكم" وما ذاك إلا ليكون أنفذ لحكمه والله أعلم فأما اتخاذه ديدنا فإنه من شعار العجم وقد جاء في السنن أنه لم يكن شخص أحب إليهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان إذا جاء لا يقومون له لما يعلمون من كراهته لذلك .

وفي الحديث المروي في الـــسُنَن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يجلس حيث انتهى به المجلس ولكن حيث يجلس يكون صدر ذلك المجلس فكان الصحابة رضي الله عنهم يجلسون منه على مراتبهم .

﴿ ...وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ ... ﴾

يعنى إذا قيل لكم أيها المؤمنون انهضوا من المجلس ، وقوموا لتوسعوا لغيركم فارتفعوا منه وقوموا .

ويقول ابن عباس – رضي الله عنهما – معناه " إذا قيل لكم ارتفعوا فارتفعوا " .

يقول صاحب البحر المحيط :

" أمروا أولاً بالتفسح فى المجلس ، ثم أمروا ثانيا : بامتثال الأمر فيه إذا أمروا وَألا يجدوا فى ذلك غضاضة .

ثم عقب بعد ذلك بقوله :

﴿ ....يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ .

يعنى : يرفع الله المؤمنين و ذلك بامتثالهم أوامره ، واجتنابهم لنواهيه وامتثال أوامر رسول الله ، واجتناب نواهيه أيضا – صلى الله عليه وسلم – والعلماء منهم خاصةً أعلى المراتب ، وأرفع الدرجات فى الجنة .

يقول " ابن مسعود " – رضي الله عنه – : " مدح الله العلماء فى هذه الآية ، ثم قال " يا أيها الناس افهموا هذه الآية ولترغبكم فى العلم ، **فإن الله يقول** : " يرفع المؤمن العالم فوق المؤمن الذى ليس بعالم درجات .

ويقول القرطبي : " **بين فى هذه الآية** : أن الرفعة عند الله بالعلم والإيمان ، و ليس بالسبق إلى صدر المجالس .

وفى الحديث " فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب " .

وعنه – صلى الله عليه وسلم – : " يشفع يوم القيامة ثلاثة : الأنبياء ، ثم العلماء ثم الشهداء " .

فأعظم بمنزلة هى واسطة بين النبوة والشهادة ، و ذلك بشهادة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – . " والله بما تعملون خبير " يعنى خير من يستحق الفضل والثواب ممن لا يستحقه .

ثم يمضى القرآن الكريم فى الحث على التحلي بالخلق الفاضل الكريم الذى يأمر به – عز وجل – فى كتابه الكريم وأيضا سنة النبي – صلى الله عليه وسلم – فيقول الله – عز وجل – للمؤمنين يا أيها المؤمنون الذين تَخَلّقوا بخلق القرآن إذا أردتم محادثة الرسول – صلى الله عليه وسلم – سراً فقدموا قبلها صدقة تتصدقون بها على الفقراء .

يقول الألوسى : " و فى هذا الأمر تعظيم لمقام رسول الله – صلى الله عليه وسلم و نفع للفقراء ، وتمييز بين المخلص والمنافق و يبين محب الدنيا ، ومحب الآخرة ، وفى تقديم الصدقات قبل مناجاته – صلى الله عليه وسلم – أفضل لكم عند الله لما فيه من امتثال أمر الله ، وأطهر لذنوبكم ، فان لم تجدوا ما تتصدقون به فان الله يسامحكم ، ويغفر لكم ، ويعفو عنكم ، لأنه لم يكلف بذلك إلا القادر منكم .

وهذا هو معنى قول الحق – سبحانه و تعالى :-

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ (١٢)﴾ [سورة المجادلة :١٢]

لما كان الإذن بالنجوى مقرونا ببذل المال امتنعوا وتركوا ، و بذلك ظهرت جواهر الأخلاق ، ونقاوة الرجال .

وقد قال تعالى :

﴿ إِنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞۚ وَإِن تُؤۡمِنُواْ وَتَتَّقُواْ يُؤۡتِكُمۡ أُجُورَكُمۡ وَلَا يَسۡـَٔلۡكُمۡ أَمۡوَٰلَكُمۡ (٣٦) إِن يَسۡـَٔلۡكُمُوهَا فَيُحۡفِكُمۡ تَبۡخَلُواْ وَيُخۡرِجۡ أَضۡغَٰنَكُمۡ (٣٧)﴾ [سورة محمد :٣٦] .

" الإستعداد للدّار الآخرة "

ويمضى القرآن الكريم فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، والحث على الأخلاق الكريمة والتحلي بها ليسعد المؤمن فى دنياه ، ويكون من الفائزين الناجين فى أخراه ، كما أن الأخلاق سبب رقى المجتمع ونهضته وإحرازه قصب السبق وقد صدق **أمير القوافي حين قال** :

إنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

فبالأخلاق تنهض الأمم ، وتبنى الحضارات ،وتقود وتسود وتعود غيرها من الدول والأمم ، ويصبح لها السيادة والريادة ويدين لها بالسمع والطاعة القاصي والداني .

يقول اللّه سبحانه وتعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٨ ﴾ [سورة الحشر :١٨]

يعنى خافوا اللّه ، واحذروا عقابه ، وذلك لا يكون إلا بامتثال أوامره واجتناب نواهيه ، ولتنظر كل نفس ما قدمت من الأعمال الصالحة ليوم معادكم وعرضكم على ربكم وسمى يوم القيامة "غدا" لقرب مجيئه، وفى بعض المواطن القرآنية يعبر عنه بالماضي كقوله تعالى :

﴿ أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ١ ﴾ [سورة النحل :١]

فعبر هنا بالماضي ومقتضى السياق والواقع أن يقول "يأتى أمر اللّه " ، أو" سيأتى أمر اللّه " والسر فى ذلك أنه لما كان يوم القيامة واقعاً لا محالة فعبر بالماضي عن المضارع لتحقق الوقوع .

ويقول- عز وجل- " وما أمر الساعة إلا كلمح البصر " والتنكير فيه للتعظيم والتفخيم والتهويل ، وكرر لفظ " التقوى " للتأكيد ولبيان منزلة التقوى التى هى وصية اللّه تعالى للأولين والآخرين .

وعلامة من نظر لغد أن يحسن مراعاة يومه ، ولا يكون كذلك إلا إذا فكر فيما عمله فى أَمْسِهِ ، والناس فى هذا على أقسام : مفكر فى أمسه : ما الذى قسم له فى الأزل؟

وآخر مفكر فى غده : ما الذى يلقاه؟

وثالث مستقل بوقته فيما يلزمه فى هذا الوقت فهو مصتبر عن شاهده موصول بربه ، متدرج فى مذكوره ، لا يتطلع لماضيه ، ولا لمستقبله ، فتوقيت الوقت يشغله عن وقته

ويقول الإمام " القرطبي " فى معنى هذه الآية:

" اتقوا الله فى أوامره ونواهيه وأداء فرائضه ، واجتناب معاصيه ، ولتنظر نفس ما قدمت ليوم القيامة " والعرب تَكْنَى عن المستقبل " بالغد " وقيل : ذكر الغد تنبيهاً على أن الساعة قريبة، كما قال الشاعر : " وإن غدا للناظرين قريب " .

ويقول الحسن وقتادة - رحمة الله تعالى عليهما - " قرب الساعة حتى جعلها كغد " ولا ريب فى أن كل آت قريب ، والموت لا محالة آت وينظر أيضا فيما قدمه من خير أو شر ، وكرر لفظة " واتقوا الله " فالتقوى الأولى التوبة فيما مضى من الذنوب ، والثانية هى : اتقاء المعاصي فى المستقبل .

﴿... وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [سورة آل عمران:١٥٣]

يقول سعيد بن الجبير " : يعنى خبير وعليم بما يكون منكم ، ويقول" الألوسى " :

التقوى الأولى فى أداء الواجبات ، كما يشعر به ما بعده من الأمر بالعمل وهذا فى ترك المحارم كما يؤذن به الوعيد بقوله سبحانه :

﴿... وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [سورة آل عمران:١٥٣]

أى من المعاصي وهذا الوجه الثاني أرجح لفضل التأسيس على التأكيد . والتقوى شاملة لترك ما يؤثم ، وترك كل محرم . وتنكير " نفس " فى الآية يفيد العموم فى سياق

الأمر أى لتنظر كل نفس . فان الأمر والدعاء ونحوهما مثل الشرط تكون النكرة فى سياقها مثل ما هى فى سياق النفي كقوله تعالى :

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ ...﴾ [سورة التوبة:٦]

وكقول " الحريري " : يأهل ذا المعنى وقيتم ضُرّا ، يعنى وقيتم كل ضر.

وأطلق على الزمن المستقبل مجازاً لقريب الزمن المستقبل من البعيد لملازمة اقتراب الزمن لمفهوم الغد ، لأن الغد هواليوم الموالى لليوم الذى فيه المتكلم،فهواقرب أزمنة المستقبل كما قال الشاعر " قراد بن أجدع " .

فإن يَكُ صدر هذا اليوم ولى ... فإن غدا لناظره قريب

وهذا المجاز شائع فى كلام العرب فى لفظ " غد " وأخواته .

قال زهير بن أبى سلمى " :

واعلم علم اليوم والأمس قبله ... ولكنى عن علم ما فى غد عَمٍّ

وهو يريد باليوم الزمن الحاضر، وبالأمس الزمن الماضي ، وبالغد الزمن المستقبل.

وجاءت لفظة " غد " نكره للتعظيم والتهويل ، يعنى الغد لا يعرف لكنهه ولا حقيقته. واللاَّم فى قوله " لغد " لام العِلْةٍ يعنى ما قدمته لأجل يوم القيامة ومن اجل الانتفاع به .

ثم يقول الله – عز وجل -: ﴿ لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ [سورة الحشر :٢٠]

يقصد لا يتساوى يوم القيامة الأشقياء والسعداء ، لا يتساوى أهل النار وأهل الجنة فى الفضل والثواب ، والأجر والنعيم . فأصحاب الجنة هم الفائزون بالسعادة الأبدية فى دار الخُلْد والنعيم ، وذلك هوالفوز العظيم والذى لا يعدله فوز ولا نجاح حيث إنه النجاح والفوز الحقيقي .

ويقول صاحب " اللَّطائف" لا يستوي أهل الغفلة مع أهل الوصلة ، وأصل كل آفة هى نسيان الله عزوجل ولولا النسيان ما حصل العصيان ، والذى نسى أمر نفسه فهو الذى لا يجتهد فى تحصيل توبته ، ويسوق فيما يلزمه به الوقت من طاعته .

ويقول الإمام " القرطبي " :-" لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة فى الفضل والرتبة ، وأصحاب الجنة هم الفائزون المكرمون المقربون الناجون من النار وصدق الله عزوجل حين قال :-

﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُونَ ﴾ [سورة السجدة :١٨] .

وقوله سبحانه وتعالى :﴿ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ ﴾ [سورة ص :٢٨] .

وقوله تعالى:- ﴿ قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ....... ﴾ [سورة المائدة : ١٠٠] .

هذا هوالقرآن الكريم الذى يتحدث عن الأخلاق ، ويأمر بها كي يُسْعِد المؤمن فى حياته ، ويفوز بالنجاة من النار فى آخرته ، وذلك هوالفوز العظيم . إنه من عند الله ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً . اللَّهم وفقنا للعمل الصالح لنفوز برضوان الله تعالى ، والسعادة فى الدنيا والآخرة ، فى الدنيا بالعمل الذى يرضيك ، وفى الآخرة الفوز بالجنة بفضلك ورحمتك .... آمين [1] .

والقرآن الكريم وهو كتاب الله وبيانه ، ووحيه وتنزيله ، وَهُدَاه وسبيله ، به قصم الله ظهر كل شيطان مريد ، وأذل به كل جبار عنيد ، هوالذى أحنى رأس الوليد ، وألان قلب عمر - رضي الله عنه - **هوالذى سمعته الجن فهتفت قائلة** :

﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴿٢﴾ ﴾ [سورة الجن١ :٢].

هذا الكتاب العظيم الذى يوجه بل يأمر بحسن الخلق ، والتواضع ، ولين الجانب حتى مع أعداء الإسلام وخصومه ، إنه أى القرآن الكريم توجيهات ربانيه وإرشادات إلهيه، وقوانين سماويه ، وإنه لتنزيل من حكيم حميد ، وإنه لا ريب فيه .

1- التسهيل لعلوم التنزيل جـ ٤ ، ص ١١٠ .

فـانظر إلى هـذا التوجيـه الخلقـي العظـيم الـذى تنتظمـه هـذه الآيـة وهـى قولـه - سـبحانه وتعـالى : ﴿ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [سورة الممتحنة :٩] .

فقـد أمـرهم الله سـبحانه وتعـالى بـشدة العـداوة مـع أعـدائهم علـى الوجـه الـذى يفعلونه ، وأما من كان فيهم ذا خلق حسن ،أو كان منه للمسلمين وجه نَعِـمْ أو رفـق ، فقد أمـرهم بالملاينـة معـه . والمؤلفـة قلـوبهم خـير شـاهد لهـذه الجملـة ، فـان الله يحـب الرفـق فى جميع الأمور. **قال - صلى الله عليه وسلم :-**

" ان الله رفيق يحب الرفق ، وَيُعْطى على الرفق ما لا يُعْطى على العنف ".

ويقول القرطبي : " إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين " يعنى جاهدوكم على الدين ، وأخرجوكم من دياركم ، وهم عتاة مكة ، وعاونوا على إخراجكم وهم مشركوا أهل مكة " إن تبروهم " ومن يتخذهم أولياءً وأنصاراً وأحباباً فأولئك هم الظالمون .

فنهى عن مصادقة ومودة من يناصب المسلمين العداوة ، ويضمر لهم البغضاء ويكمن لهم الشر والسوء وخاصة من يقاتل المسلمين ويحارب دينهم ويطارد عقيدتهم فى كل مكان على النحو الذى نراه فى هذا العصر من محاربة للإسلام وأهله فوق كل أرض كالذى نراه فى" البوسنة والهرسك " حيث المجازر والمذابح للمسلمين على أيدى" الصرب " وكالتى نراها فى "جمهورية الشيشان" فى روسيا الملحدة ، وكذلك فى" العراق " وما حدث من احتلال للأرض وهتك للعرض ، مثل الذى رأيناه وسمعناه فى وسائل الإعلام المسموعة والمقروءة ، والمرئية لما حدث فى سجن"أبو غريب "فى العراق حيث كانت مسلمة تصرخ وتقول "فى بطني أمريكى " وأُخرى تعلن لقد عاشرني أكثر من سبعة عشر رجلاً حتى حدث لديها " تهتك فى الرحم" ، ومثل الذى شاهدناه ، ورأيناه رُأى العين فى حرب " قطاع غزة " من قتل للرجال ، وذبح للأطفال والنساء ، وهدم للمنازل ، وتجريف للأراضى الزراعية فهوا هلاك للحرث والنسل ، والله لا يحب الفساد .

كل هذه الجرائم التى ترتكب على مرأى ومسمع من الدول التى تدعى الحرية والديمقراطية والتقدم ، والتمدن ، والحضارة ، والغريب والعجيب أنها تصف الإسلام بـ "الإرهاب " من الارهابى ؟!!! .

الذى يدافع عن حقه ، ويذود عن عرضه ، ودينه وماله ، يقال له : أنت ارهابى . والذى يغتصب الأرض والعرض ويهلك الحرث والنسل متحضر ومتمدن .!!! هذا ما تفعله " أمريكا ،وإسرائيل ، وفرنسا وانجلترا " أنه الكفر البواح ، وقد صدق فقهاء الإسلام حيث قالوا " الكفر كله مِلةً واحدةً " أجل إن الكفر كله ملة واحدة ، وطريقة متحدة مهما اختلف لِبُوسِهِ ، وتباينت أقنعته ، وتعددت أَردِيتَه ، واختلفت أسماؤه.

ولكن الله عز وجل سينصر دينه ، والذى يدافع عنه ، فمهما ادلهم اللَّيل واعترك الظلام ، وطال الزمن سينجلي الكرب ، ويذهب الليل ، وينتصر الحق ويعلى الله دينه وناصره . فهو حق :

الحق منتصر فى كل آونة وحافر البئر غبنا واقع فيها

ثم تمضى الآية فتقول : ومن يصادق أعداء الله ، ويتخذهم أنصاراً وأحباباً فأولئك هم الظالمون لأنفسهم ، وذلك بتعريضها للعذاب من الله سبحانه وتعالى فذلك توجيه رباني وإرشاد الهي، ونصح قرآني ، وخلق اسلامى لوان المسلمون اتبعوه لاهتدوا، ونجحوا فى حياتهم جميعا ، ويسعدوا فى دنياهم ، وفى أُخراهم . (١)

---

1 - التفسير الكبير للرازي ، جـ ٢٩ ، ص ٣٤ .
- تفسير البحر المحيط جـ ٨ ، ص ٢٥٦.
- النهر الماد من البحر المحيط .
- الدر اللفيظ من البحر المحيط .
- روح المعاني للالوسى جـ ١٥ ، ص ١٠٧ ــ ١٠٨.
- تفسير القرطبي جـ ٩ ، ص ٦٥٣٨ وما بعدها ط دار الريان للتراث ، القاهرة .
- لطائف الإشارات للإمام القشيرى جـ ٣ ، ص ٥٧٢ و ما بعدها ، ط مركز تحقيق التراث ، الهيئة المصرية للكتاب ص ١٩٨٣.

" الوفاء بالوعد "

ومن الأخلاق القرآنية الكريمة التى وجهنا إليها القرآن الكريم ، وحثنا نحن المسلمين على التخلق بها على النحوالذى يريده لنا الله سبحانه وتعالى " الوفاء بالوعد " وعدم الخلف **فقال تعالى :-**

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٣ ﴾ [سورة الصف٢ :٣].

والمعنى يأيها الذين صدقوا الله ورسوله لما تقولون بألسنتكم شيئاً ولا تفعلونه ؟ .

وهواستفهام إنكارى توبيخي .

يقول "ابن كثير" - رحمه الله تعالى - الآية إنكار على من يعد وعدا أو يقول قولا لا يفي به ، ولهذا استدل بالآية الكريمة من ذهب من علماء السلف إلى انه يجب الوفاء بالوعد مطلقا سواء ترتب عليه عزم للموعود أم لا .

واحتجوا أيضا من السنة فيما ثبت فى الصحيحين أن رسول الله- صلى الله عليه وسلم- قال " **آية المنافق ثلاث :**

إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا ائتُمن خان " وفى الصحيح أيضا " أربع من كن فيه كان منافقا خالصا ، ومن كانت فيه واحدة منهن كانت فيه خصلة من نِفَاق حتى يدعها " فذكر منهن : إخلاف الوعد .

ولهذا أكد الله تعالى هذا الإنكار عليهم بقوله تعالى :-

﴿ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٣ ﴾ [سورة غافر :٣٥].

وقد روى الإمام " أحمد " و" أبو داود " عن عبد الله بن عامر بن ربيع قال: " أتانا رسول الله - صلى الله عليه وسلم- وأنا صبى ، فذهبت لأخرج لألعب فقالت أمى تعالى يا عبد الله أعطيك . فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم :-

" وما أردت ان تعطيه "؟

قالت : تمرا قال : أما إنك لو لم تفعلِ كتبت عليك كذبة " .

وذهب الإمام " مالك " ـ رحمه الله ـ إلى أنه إذا تعلق بالوعد عزم على الموعود وحب الوفاء به كما لو قال لغيره تزوج ولك على كل يوم كذا فتزوج وجب عليه أن يعطيه ما دام كذلك ، لأنه تعلق به حق آدمي ، وذهب الجمهور إلى أنه لا يجب مطلقاً ، وحملوا الآية على أنها نزلت حين تمنوا فريضة الجهاد عليهم فلما فرض لكن على بعضهم **كقوله تعالى** :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ ﴾

[سورة النساء :٧٧]

وقال تعالى: ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴾ [سورة محمد :٢٠].

وعن ابن عباس– رضي الله عنهما– قال فى هذه الآية :

كان ناس من المؤمنين قبل أن يفرض الجهاد يقولون لوددنا أن الله – عز وجل – دلنا على أحب الأعمال إليه فنعمل بها ، فأخبر الله نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ إن أحب الأعمال إيمان بالله ، وجهاد لأهل معصيته ، الذين خالفوا الإيمان ولم يقروا به ، فلما نزل الجهاد كره ذلك ناس من المؤمنين وشق عليهم أمره فقال الله سبحانه و تعالى:–

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ ﴾ [سورة الصف :٢].

ويقول صاحب " لطائف الإشارات " أنهم قالوا : لو علمنا ما فيه رضي الله لفعلنا و لو فيه كل جهد .

ثم لما كان" يوم أحد " لم يثبتوا فنزلت هذه الآية فى العتاب .

ويقول " محمد بن كعب "- رضي الله عنه . لما أخبر الله تعالى نبيه - صلى الله عليه وسلم -بثواب شهداء بدر قال بعض الصحابة- رضوان الله تعالى عليهم أجمعين - اللَّهم اشهد لئن لقينا قتالاً لنفرغن فيه وسعنا ، ولكنهم فروا يوم أحد فعيرهم الله بذلك .

فخلف الوعد قبيح ، ومع الله - عز وجل - أقبح ويقال إظهار التجلد من غير شهود مواضع الفقر إلى الحق فى كل نفس يؤذن بالبقاء عما حصل بالدعوى أى بدعوى النفس .

تسول له نفسه أن له فى الأمر شيئاً ، وأن تدبيره هوالذى مكن له .

والله يحب التَبْرَىِ من الحول والقوة .

ولم يتوعد - سبحانه وتعالى - زلة بمثل ما على هذا حين قال " كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون " .

وعن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم " أتيت ليلة أُسْرَي بى على قوم تقرض شفاههم بمقاريض من نار كلما قرضت وفت- يعنى نمت وطالت- قلت من هؤلاء يا جبريل ؟ قال هؤلاء خطباء أمتك الذين يقولون مالا يفعلون ، ويقرأون كتاب الله ولا يعملون "[1] .

ونظيره هذه الآية فى القرآن الكريم ما يحكيه لنا الإمام " القرطبي " فيقول :

قال المؤمنون يا رسول الله لو نعلم أحب الأعمال الى الله لسارعنا إليها فنزلت هذه الآية وهى قوله سبحانه :-

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿١٠﴾ ﴾ [سورة الصف :١٠]

فمكثوا زمناً طويلاً يقولون : لو نعلم ما هى لاشتريناها بالأموال والأنفس والأهلين ، فدلهم الله تعالى بقوله - عز وجل - :

١- اخرجه ابى نعيم من حديث مالك بن دينار عن ثمامة .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ ﴾ [سورة الصف :١١]

فابتلاهم الله - سبحانه وتعالى - يوم أحد ففروا ولم يثبتوا ، فنزلت هذه الآية تعيرهم بالفرار، وترك الوفاء .

ويقول محمد بن كعب- رضي الله عنه- لما أخبر الله تعالى نبيه -صلى الله عليه وسلم- بثواب شهداء بدر قالت الصحابة- رضوان الله عليهم أجمعين .اللَّهُم اشهد لئن لقينا قتالاً لنفرغن فيه وسعنا ، ففروا يوم أُحد فَعَيّرَهُم الله بذلك لعدم الوفاء بالوعد ،

ويقول قتادة والضحاك :

نزلت الآية فى قوم كانوا يقولون- نحن جاهدنا وأبلينا ولم يفعلوا- والراجح والصواب والأولى المعنى الأول وهوانهم تمنوا أنهم لو لاقوا جهاداً فى سبيل الله لجاهدوا بأموالهم وأنفسهم ليحصلوا بذلك ثواب أهل غزاة بدر الكبرى الذين قال فيهم رسول الله- صلى الله عليه وسلم :-

" لعل الله اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فأنى قد غفرت لكم " .

" التجارة مع الله "

ويمضى القرآن الكريم فى الحديث عن الأخلاق فيقول :-

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿١٠﴾ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١٢﴾ ﴾

[سورة الصف١٠ :١٢]

يقول" مقاتل" :

نزلت هذه الآية فالصحابي الجليل "عثمان بن مظعون " - رضي الله عنه - وذلك أنه قال لرسول الله- صلى الله عليه وسلم - لواذنت لي فطلقت خوله وترهبت واختصيت وحرمت اللّحم ، ولا أنام بليلٍ أبدا ، ولا أفطر بنهارٍ أبدا فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - " ان من سنتي النكاح ولا رهبانية فى الإسلام ، إنما رهبانية أمتى الجهاد فى سبيل الله ، وخصاء أمتى الصوم ولا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ، ومن سنتي أنام وأقوم ، وافطر وأصوم فمن رغب عن سنتي فليس منى .

فقال " عثمان بن مظعون " - رضي الله عنه –

والله لوددت بأني آتىَّ التجارة أحب إلى الله فأتجر فيها ، فنزلت هذه الآية

وهو قوله سبحانه وتعالى :-

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿١٠﴾ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١٢﴾ ﴾

[سورة الصف١٠ :١٢]

ويقول الله – عز وجل – فى ذات المعنى " :-

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾ [سورة التوبة :١١١].

وهذا خطاب لجميع المؤمنين .

وقيل هو خطاب لأهل الكتاب ، والصواب والراجح أنه خطاب للمؤمنين.

والدليل على ذلك قوله – سبحانه وتعالى – :

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ ...﴾ [سورة التوبة :١١١]

" إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة " ، فالآية خاصة بالفئة المؤمنة ، وليس أهل الكتاب لأنهم غير مؤمنين ، وقوله تعالى " تنجيكم من عذاب أليم " يعنى تخلصكم من عذاب أليم ومؤلم وشديد وهو من "إلانجاء" وقرأ الحسن وابن عامر وأبو حيوة " تنجيكم من عذاب أليم " وهو من " التنجية " ثم يبين الحق سبحانه وتعالى التجارة المربحة فيقول هى " تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم " يعنى أن التجارة المربحة هى الإيمان بالله ، ثم الإيمان برسول الله- صلى الله عليه وسلم -ثم الجهاد فى سبيل الله .

وناداهم بوصف الإيمان تعريضا بأن الإيمان من شأنه أن يزغ المؤمن عن أن يخالف فعله قوله فى الوعد بالخير.

وفيه كناية عن تحذيرهم من الوقوع فى مثل ما فعلوه " يوم أحد " بطريقة الزمر وكناية عن اللَّوم على ما فعلوه " يوم أحد " بطريقة التلويح . ويبين الله

- عز وجل - كيفية الجهاد فيقول إن الجهاد يكون بالنفس والمال . وقدم ذكر المال على النفس علماً بأن النفس هى أعظم شيء لدى الإنسان فمتى ذهبت نفسه مات وفارق الحياة الدنيا لأن المال هو الذى يبدأ به فى الإنفاق ، وهذا العمل وذلك الفعل خَيّرٌ وأفضل وأحسن وأعظم من المال والنفس إن كنتم تعلمون ما فى ذلك من الثواب والأجر الجزيل عند الله يوم القيامة ، حيث يكون الجزاء جنات عرضها السماوات والأرض أُعِدت لهؤلاء وأمثالهم من العاملين الخاشعين المتقين .

ولذلك قال بعدها مخبرا - سبحانه وتعالى - ومعينا الجزاء الذى سيلقونه فى الدار الآخرة ، فقال عز من قائل:- ﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ (١٢) ﴾ [سورة الصف :١٢]

وقوله تعالى " تؤمنون " هى فى معنى آمنوا عند " المبرد " و " الزجاج " ولذلك جاء قوله تعالى " يَغْفِرْ لَكُمْ " مجزوما على أنه جواب الأمر ويقول القرآن " يَغْفِرْ لَكُمْ " جواب الاستفهام .

وهذا إنما يصح على الحمل على المعنى وذلك أن يكون " تؤمنون بالله " وتجاهدون عطف بيان على قوله :-

" هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذابٍ أليم " كأن التجارة لم يدر ما هى فبينت بالإيمان ، والجهاد ، فهى هما فى المعنى فكأنه قال هل تؤمنون بالله وتجاهدون يغفر لكم والمعنى هل تتجرون بالإيمان والجهاد يغفر لكم ، فما أجمل ولا أعظم من التجارة مع الله سبحانه وتعالى حيث ان الربح مضمون ، والثمن مربح ،

والجزاء عادل ، أنها الفردوس الأعلى لمن تاجر مع الله مبتغياً رضوانه عز وجل.[1]

1- تفسير الكشاف للزمخشرى ، جـ ٤ ، ص ٣١٤.
- التفسير الكبير جـ ٢٩ ، ص ٣١١ .
- تفسير ابن كثير جـ ٤ ، ص ٣٥٧ ، و ما بعدها .
- لطائف الإشارات جـ ٣ ، ص ٥٧٥ و ما بعدها .
- تفسير القرطبي جـ ٩ ، ص ٦٥٥٦ ، وما بعدها .
- تفسير النسفى .
- روح المعاني للالوسى جـ ١٥ ، ص ١٢٢ ، وما بعدها .
- تفسير الجلالين للسيوطي .
- تفسير التحرير والتنوير جـ ٢٨ ، ص ١٧٤ ، وما بعدها .

" الانفاق فى سبيل اللّه "

ومن الأخلاق القرآنية الكريمة التي وجهنا إليها ربنا – عز وجل – الإنفاق في سبيل الله ، حيث أن الإسلام دين يقوم على البذل والعطاء ، ولذلك نرى الإسلام يحض على السخاء والمسارعة إلى دواعي الإحسان ، فيقول الله – عز وجل –

﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾ ﴾ [سورة البقرة :٢٧٤] .

يعني الذين ينفقون أموالهم في سيبل الله إبتغاء مرضاته – سبحانه – في جميع الأوقات من ليل أو نهار ، وفى جميع الأحوال من سر و جهر ، وهؤلاء المُنْفِقُون لهم ثواب ما أنفقوا ولا خوف عليهم يوم القيامة ، ولا هم يحزنون على ما فاتهم في الدنيا .

ويقول الإمام الشهيد " السيد قطب " في معنى هذه الآية :

" هكذا بوجه عام يشمل جميع أنواع الأموال ، كما تشمل جميع الأوقات وجميع الحالات ، وفى مقابل ذلك لهم أجرهم من مضاعفة المال ، وبركة العمر وجزاء الآخرة ورضوان الله ، ولا خوف عليهم من أى مخوف ، ولا حزن من أى محزن في الدنيا والآخرة سواء .

ويقول " ابن كثير " وهذا مدح الله تعالى للمُنْفِقِين فى سبيله وابتغاء مرضاته فى جميع الأوقات من ليل أو نهار وفى جميع الأحوال من سر وجهار حتى أن النفقة على الأهل تدخل فى ذلك ، كما ثبت فى الصحيحين أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال " لسعد بن أبى وقاص " - رضي الله عنه- حين عاده مريضاً عام الفتح ، وفى رواية أُخرى عام حجة الوداع " وإنك لن تنفق نفقة تبتغى بها وجه الله إلا إزددت بها درجةً ورفعةً ، حتى ما تجعل فى امرأتك " يعنى فى فم زوجك .

وعن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : " إن المسلم إذا انفق على أهله نفقة يحتسبها كانت له صدقة " والمراد انه يحتسبها لوجه الله ، وإبتغاء مرضاته .

وروى عن النبي – صلى الله عليه وسلم – إن هذه الآية نزلت فى أصحاب الخيل وهوالذين يعلفون الخيل فى سبيل الله ، وقيل كان لعلي أربعة دراهم فأنفق درهما ليلاً ودرهماً نهاراً ، ودرهماً سراً ، ودرهماً علانية فنزلت هذه الآية :-

﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴾

[سورة البقرة :٢٧٤].

هؤلاء لهم أجرهم عند ربهم على ما فعلوا من الإنفاق فى الطاعات ، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

ويقول رسول الله – صلى الله عليه وسلم – " يا ابن آدم إنك إن تبذل الفضل خير لك ، وإن تمسكه شر لك ، ولا تُلاَم على كفاف ، وابدأ بمن تعول ، واليد العليا خير من اليد السفلى " (١) .

وقد أشار القرآن إلى هذا المعنى حين قرن القرآن الكريم النهى عن التبذير بأمر الإنفاق على القرابة ، والمساكين ، فأن المبذر متلاف سفيه ، يضيع فى شهواته الخاصة زُبْدَةَ مَالِهِ ، فماذا يبقى بعد للحقوق الواجبة ، والعون المفروض ؟ .

يقول الله تعالى :-

﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ ﴾ [سورة الإسراء٢٦ :٢٧] .

ويقول الإمام الشيخ المرحوم ، والمغفور له ـ بإذن الله– أستاذنا المفكر الاسلامى الكبير" الشيخ محمد الغزالي " :

ومضى السياق فى الإيصاء بالمحتاجين ، وصيانة وجوههم فأمر المسلم أن يرجيهم الخير، وأن يرد بميسور من الجود إذا كان لا يملك إيتاءهم ما يبتغون .

1- رواه مسلم.

قال تعالى:-

﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾

[سورة الإسراء :٢٨]

ودعوة الإسلام إلى الجود والإنفاق مستفيضة مضطردة ، وحرية على الكزازة والبخل موصولة متقدة[١] ، وفى الحديث " السخي قريب من الله ، قريب من الناس قريب من الجنة ، بعيد من النار ، والبخيل بعيد من الله ، بعيد من الناس ، بعيد من الجنة قريب من النار، ولجاهل سخي أحب إلى الله من عابد بخيل " [٢]فلن يوجد فى الدنيا نظام يستغنى فيه البشر عن التعاون ، ويقول الله تعالى:-

﴿ ... وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [سورة المائدة :٢]

ويقول النبي- صلى الله عليه وسلم - " والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه " ولو كان المال فى وفرته يتبع ما أوتى الناس من مواهب معنوية لاكتنز البعض الكثير، وعاش البعض على الكفاف ، فتلك سنن الخليقة ، ويتسرب الشقاء إلى الناس عندما يعيشون متقاطعين لا يعرفون إلاَّ أنفسهم ، وتحقيق شهواتها ، والجري وراء ملذاتها ولكن الله جعل الإنفاق تمحيصاً للأغنياء ويمحص به الإيمان ، ويوزع به الفضل .

ومن سنن الحياة الدنيا أنك ترى الجهال أصحاب ثروات طائلة ، وأهل العلم والفضل يعيشون على الكفاف ، يقول الشاعر :

كم عاقل عاقل أعيت مذاهبه ... وكم جاهل جاهل تلقاه مرزوقا

هذا الذي ترك الأوهام حائرة ... وحير العالم التحرير زنديقا

1- خلق المسلم الشيخ محمد الغزالي ص ١٠٩ ط نهضة مصر .

2- رواه الترمذى .

وقال آخر :

تموت الأُسْدُ فى الغابات جوعاً ولحم الضأن تأكله الكلاب

ويقول الإمام " على بن أبى طالب " - رضي الله عنه :-

رضينا قسمة الجبار فينا لنا علم وللجهال مال [1]

ويقول الحق فى هذا المعنى :-

﴿...وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾

[سورة الفرقان :٢٠]

ولن تنجح أمة إلا إذا وَثِّقَتْ الصلات بين أبنائها ، ولا يكون ذلك إلا بتحقيق العدل بين أبناء المجتمع.

ويقول تعالى ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ ...﴾ [سورة محمد :٣٨] .

إن الفقر معسرة إذا ألصقت بالإنسان أحرجته ، وهبطت به دون المكانة التي كتب الله للبشر وقد تحرمه الكرامة التي فضل الله بها الإنسان عل سائر الخلق قال تعالى:

﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾ [سورة الإسراء :٧٠] .

هذه هي الأخلاق في القرآن الكريم التي تدعو إلى السخاء ، والبذل والعطاء فلو أن أتباع محمد - صلى الله عليه وسلم - إستمسكوا بهذه الأخلاق القرآنية لسعدوا في الدنيا والآخرة ، وأسعدوا غيرهم من الفقراء ، والمساكين ، والمعوزين والمحتاجين [2].

ويقول بعض الحكماء : إذا اصطنعت المعروف فاستره ، وإذا اصطنع إليك فانشره ، وانشدوا :

يخفى صنائعه والله ينشرها إن الجميل إذا أخفيته ظهر

1- ديوان الإمام على " قافية اللام " .

ويقرر القرآن الكريم انه من الأخلاق التى وجهنا إليها الله - عز وجل - فى محكم كتابه الكريم أنه أمرنا أَلاَ نضيع أمور ديننا الحنيف بسبب الأموال والأولاد بل من الواجب إيثار حق الله على جميع الحقوق ، فإذا ما فعلنا ذلك كفانا الله أمور الدنيا والأولاد ، فإذا كنت لله كان الله لك .

وحق الله هو ما ألزمك القيام به وحقك ضمن لك القيام به ، فأشتغل بما كلفت لا بما كفيت .

وذلك هو معنى قول الله - عز وجل -:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٩﴾ [سورة المنافقون :٩] .

وذلك لما ذكر قبائح المنافقين ، نهى المؤمنين عن التشبه بهم فى الاغترار بالأموال والأولاد عن طاعة الله وعبادته ، وعن أداء ما افترضه عليكم من الصلاة والزكاة والحج ، كما شغلت المنافقين .

يقول " أبو حيان " يعنى لا تشغلكم أموالكم بالسعي فى نمائها ، والتلذذ بجمعها ولا أولادكم بالسرور بهم ، وبالنظر فى مصالحهم عن ذكر الله ، وهو عام فى الصلاة والتسبيح والتحميد ، وسائر الطاعات .

والذى شغلته الدنيا عن طاعة الله وعبادته ، فأولئك هم الكاملون فى الخسران حيث أنهم آثروا الحقير الفاني ، على العظيم الباقي ، وفضلوا العاجل على الآجل ، ثم يوجههم القرآن الكريم الى السخاء ، والبذل والعطاء وذلك بالإنفاق فى سبيل الله ومرضاته ،فقال تعالى " وأنفقوا مما رزقناكم " يعنى أنفقوا من بعض ما أعطيناكم وتفضلنا به عليكم من الأموال من قبل أن يحل الموت بالإنسان ويصبح فى حالة الإحتضار فيقول عند تيقنه بالموت يارب هلا أمهلتنى ، وأخرت موتى إلى زمن قليل فاصدق وأحسن عملي ، وأصبح صالحا تقيا .

يقول " ابن كثير الدمشقي ". رحمه الله تعالى :-

" كل مفرط يندم عند الإحتضار ويسأل طول المدة ليستدرك ما فات" .

ولكن هيهات هيهات و لن يمهل الله أحدا مهما كان ، وأيّاً كان إذا انتهى أجله ولن يزيده فى عمره ، وفيه تحريض على المبادرة بأعمال الطاعات ، حذراً أن يجئ الأجل وقد فرط ولم يستعد للقاء ربه ، والله سبحانه عالم ومطلع على أعمالكم من خير أو شر ومجازيكم عليها .

ويقول " صاحب اللَّطَائِف " :-

(يعنى لا تغتروا بسلامة أوقاتكم ، وترقبوا بغتات آجالكم ، وتأهبوا لما بين أيديكم من الرحيل ، ولا تعرجوا فى أوطان التسويف).

ويقول " الألوسى " :-

والمضارع فى الموضوعين كما قال المبرد وجماعة . خبر بمعنى الأمر . أى آمنوا وجاهدوا ، والمراد تثبتون وتداومون على الإيمان ، أو تجمعون بين الإيمان والجهاد . هكذا يكون الإيمان مقروناً بالجهاد فى سبيل الله حتى يسعد المؤمن فى دنياه وأُخْراه . وذلك بالإيمان والجهاد فى سبيل الله .(١)

وهذه آية من كتاب الله الكريم نزلت بسبب قوم كافرين تأخروا عن الهجرة من دار الشرك الى دار الإسلام ، وذلك بتثبيط أولادهم إياهم عن ذلك ، فأنزل - سبحانه وتعالى - هذه الآية القرآنية الكريمة فقال تعالى :-

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾﴾ [سورة التغابن :١٦]

وقيل : " فاتقوا الله ما استطعتم "

يعنى فيما تطوع به من نافلة أو صدقة .

1- تفسير البحر المحيط جـ ٨ ، ص ٢٧٣.

فإنه لما نزل قوله سبحانه :﴿.. ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ .. ﴾ [سورة آل عمران :١٠٢] إشتد على القوم فقاموا حتى ورمت عراقيبهم ، وتقرحت جباههم ، فأنزل الله - سبحانه وتعالى - تلك الآية تخفيفا عنهم فقال تعالى :-

" فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ " ويفهم من هذه الآية أن المكره على المعصية غير مؤاخذ بها ، لأنه لا يستطيع إتقاءها " وَٱسْمَعُواْ وَأَطِيعُواْ " يعنى اسمعوا ما توعظون به ، وأطيعوا فيما تؤمرون به ، وتنهون عنه .

ويقول " مقاتل ". رحمه الله تعالى- (اسمعوا) أى أصغوا إلى ما ينزل عليكم من كتاب الله ، وهوالأصل فى السماع ، وفى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وأطيعوا رسول الله فيما أمركم به ، ونهاكم عنه .

ويقول " قتادة " - رضى الله عنه - عليهما بُويع النبي -صلى الله عليه وسلم - على السمع والطاعة .

وقيل (اسمعوا) يعنى أقبلوا ما تسمعون ، وعبر عنه بالسماع لأنه فائدته .

وقد تغلغل فى هذه الآية " الحجاج بن يوسف الثقفي " :-

حين تلاها وقصرها على الخليفة " عبد الملك بن مروان " فقال " فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا " هى " لعبد الملك بن مروان " أمين الله وخليفته وليس فيها مثنوية والله لو أمرت رجلاً أن يخرج من باب المسجد فخرج من غيره لحل دمه . وكذب " الحجاج بن يوسف الثقفي " فى تأويل هذه الآية ، حيث إن الآية لرسول الله .صلى الله عليه وسلم. ثم لأولى الأمر من بعده .

والدليل على هذا قوله سبحانه :-

﴿... أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ... ﴾ [سورة النساء :٥٩] .

(وأنفقوا) قيل هى الزكاة ، و يقول" ابن عباس "ـ رضى الله عنهما- هو نفقة الرجل فى النفل .

ويقول " الضحاك " هوالنفقة فى الجهاد وقال " الحسن " هو نفقة الرجل لنفسه.

ويقول " ابن العربي " وإنما أوقع قائل هذا قوله تعالى:- " لأنفسكم " وخفي عليه أن نفقة النفل ، والغرض فى الصدقة هى نفقة الرجل على نفسه .

قال الله تعالى:

﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ ... ﴾ [سورة الإسراء :٧] .

فكل ما يفعله المسلم من خير فهو لنفسه . والصحيح فى الآية أنها عامة وليست خاصة بأحد دون غيره .

ويروى" أن النبي – صلى الله عليه وسلم- قال له رجل عندي دينار، فقال المصطفى-عليه الصلاة والسلام – أنفقه على نفسك ، قال : عندي آخر، قال : أنفقه على عيالك .

قال : عندي آخر.

قال : إنفقه على ولدك .

قال : عندي آخر.

قال : تصدق به .

" فبدأ بالنفس والأهل والولد وجعل الصدقة بعد ذلك . وهذا هوالأصل فى الشريعة الإسلامية ، فوصية القرآن الكريم -قدموا خير لأنفسكم من أموالكم – " ومن يوقى شح نفسه فأولئك هم المفلحون " .

وكذلك قوله تعالى :

﴿ إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ ... ﴾ [سورة التغابن :١٧].

وقوله - سبحانه وتعالى: -

﴿...وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾﴾ [سورة التغابن :١٧] .

والحليم هو الذى لا يَعْجَل .

والمراد فى قوله تعالى: " فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ " أبذلوا أيها المؤمنون فى طاعة الله جهدكم وطاقتكم ولا تكلفوا أنفسكم مالا تطيقون .

وهذا يكون فى المأمورات وفضائل الأعمال يأتى منها الإنسان بقدر طاعته .

وأما فى المحظورات فلابد من إجتنابها ، ودليل ذلك ما روى عن النبي - صلى الله عليه وسلم -" إذا أمرتكم بأمر فائتوا منه ما استطعتم ، وما نهيتكم عنه فاجتنبوه " (٣).

واسمعوا ما توعظون به وأطيعوا فيما تؤمرون به وتنهون عنه ، ومن سلم من البخل والطمع والجشع الذى تأمر به النفس ، وهى الأمارة بالسوء فقد فاز برضوان الله ومغفرته .

﴿...وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾﴾ [سورة الحشر :٩].

" والله شكور حليم " يعنى شاكر للمحسن إحسانه ، حليم بالعباد حيث لا يعاجلهم بالعقوبة مع كثرة ذنوبهم وهو تعالى العالم بما غاب وحضر ، لا تُخفّىَ عليه خافية، " يعلم خائنة الأعين وما تُخْفِى الصدور " ، " سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخفى بالليل وسارى بالنهار " . العزيز الحكيم الغالب فى ملكه ، الحكيم فى صنعه

ويقول صاحب " لطائف الإشارات " ما دمتم فى الجملة مستطيعين ويتوجه عليكم التطليق فأتقوا الله ، والتقوى عن شهود التقوى بعد ألا يكون تقصير فى التقوى غاية التقوى " ومن يُوُقّ شُحَ نفسه " وحتى ترتفع الأخطار عن قلبه ويتحرر من رق المكونات " فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ " [سورة الحشر :٩]

١- اخرجه الشيخان .

هذا هو خلق القرآن الكريم وصدقت السيدة الفضلى " عائشة بنت أبى بكر الصديق "- رضى الله عنه - وزوج رسول الله- صلى الله عليه وسلم -حين سُئلت عن أحوال النبي - صلى الله عليه وسام - فقالت : كان رسول الله- صلى الله عليه وسلم - قرآن يمشى فوق الأرض .

يعنى كان خُلقه القرآن يأتمر بما أمره الله به ، وينتهي عما نهاه الله عنه والخطاب للنبي - صلى الله عليه وسلم - أوالأمر له هو خطاب لأُمته ، وأمر لأُمته . نسأل الله أن يرزقنا التخلق بأخلاق القرآن الكريم ، والإهتداء بهدى نبيه - صلى الله عليه وسلم-.

فهلا تخلق المسلمون بأخلاق القرآن الكريم ليسعدوا فى دنياهم ، ويفوزوا فى أُخراهم وبذلك نسود ، ونعود ، ونرقى ، ونتقدم ، ونتمدن ، وتعود الدنيا بأسرها فما أحوجنا - نحن المسلمين - الى التخلق بأخلاق القرآن الكريم والإستمساك بسنة نبيه - صلى الله عليه وسلم- خاصة فى هذا العصر الأنكد الذى يموج بالتيارات الوافدة ، والأعاصير الهوج التى تهب بالسموم من الشرق والغرب [١] .

---

1 - تفسير الطبرى جـ ٢٨ ، ص ٨٠ .
- تفسير ابن كثير جـ٤ ، ص ٣٧٧.
- تفيبر القرطبي جـ١ ، ص ٦٦٢٣ و ما بعدها . ط دار الريان للتراث . القاهرة .
- لطائف الاشارات جـ١ ، ص ٥٩٦ و ما بعدها .
- التحرير والتنوير جـ ٢٨ ، ص ٢٨٧ و ما بعدها .
- التفسير الكبير للفخر الرازى .
- فى ظلال القرآن الكريم لامام الشهيد سيد قطب .
- البحر المديد لابن عجيبة .

" آداب إسلامية "

وهذه آية من آيات الكتاب العزيز تتحدث عن الأخلاق ، وتأمر بها وهذه الآية من " سورة الطلاق " وسميت بذلك لأن السورة تحدثت فى أول آية منها عن الطلاق وعما يجب إتباعة مع النساء فى هذه الحالة فقال تعالى :-

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحۡصُواْ ٱلۡعِدَّةَۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡۖ لَا تُخۡرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخۡرُجۡنَ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥۚ لَا تَدۡرِي لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحۡدِثُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ أَمۡرٗا ١﴾

[سورة الطلاق:١].

والخطاب فى الآية لرسول الله- صلى الله عليه وسلم - وقد خوطب النبي- صلى الله عليه وسلم - بلفظة الجماعة تعظيماً له وتفخيما .

وفى سنن ابن ماجة عن سعيد بن الجبير عن ابن عباس عن عمر بن الخطاب - رضى الله عنهم أجمعين- أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - طلق " حفصة " - رضى الله عنها - فأتت أهلها ، فأنزل الله تعالى على النبي - عليه السلام - قوله تعالى :-

" يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ..." [سورة الطلاق:١].

وقيل له- عليه السلام . راجعها فإنها قوامه صوامه ، وهى من أزواجك فى الجنة .

ويروى أنه نزل فى خروجها إلى أهلها قوله تعالى :

" لَا تُخۡرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ "[سورة الطلاق:١].

ويروى فى سبب نزول هذه الآية أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - غضب على حفصة لما أَسَرَّ إليها حديثاً فأظهرته للسيدة " عائشة "- رضى الله عنها- فطلقها تطليقةً واحدةً فنزلت الآية .

وقيل : أن الآية نزلت فى " سيدنا عبد الله بن عمر " - رضى الله عنهما - حيث أنه طلق إمرأته وهى حائض تطليقه واحدة فنزلت الآية ، فقال رسول الله . صلى الله عليه وسلم - لسيدنا عمر بن الخطاب - رضى الله عنه- مر إبنك فليراجعها .

وكان عبد الله بن عمر -رضى الله عنهما - طلق امرأته تطليقةً واحدةً فأمره رسول الله . صلى الله عليه وسلم . ان يراجعها ، ثم يمسكها حتى تطهر وتحيض ، ثم تطهر فإذا أراد أن يطلقها فليطلقها حين تطهر من قبل أن يجامعها . فتلك العدة التى أمر الله تعالى أن يطلق لها النساء .

وقيل أن رجالاً فعلوا مثل ما فعل عبد الله بن عمر ، ومنهم عبد الله بن عمرو بن العاص ، وعمرو بن سعيد بن العاص ، وعتبة بن غزوان- رضى الله عنهم أجمعين - فنزلت هذه الآية الكريمة فيهم ، والصواب والراجح لدينا أن الآية خطاب للنبي- صلى الله عليه وسلم - والمراد بالخطاب أمته .

وإذا أراد الله بالخطاب المؤمنين لأطلقه بقوله " يأيها النبي " وإذا كان الخطاب باللفظ والمعنى جميعا له قال " يأيها الرسول " والدليل على صحة هذا القول نزول العدة فى " أسماء بنت يزيد السكن الأنصارية " - رضي الله عنها . فقد طلقت على عهد النبي - صلى الله عليه وسلم -ولم يكن للمطلقة عدة ، فأنزل الله تعالى حين طلقت أسماء بالعدة للطلاق فكانت أسماء بنت يزيد السكن الأنصارية -رضي الله عنها -أول من أنزل فيها العدة للطلاق .

وقيل أن المراد به نداء النبي -صلى الله عليه وسلم- تعظيماً ، ثم ابتدأ فقال " إذا طلقتم النساء " مثل قوله تعالى :-

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٩٠﴾ [سورة المائدة : ٩٠]

فذكر المؤمنين على معنى تقديمهم وتكريمهم ، ثم افتتح فقال :

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٩٠﴾ [سورة المائدة :٩٠].

ويروى لنا " الثعلبي " من حديث عبد الله بن عمر بن الخطاب - رضى الله عنهما- قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم – :" إن من أبغض الحلال الى الله تعالى الطلاق "

وعن عَلِىّ عن النبي - صلى الله عليه وسلم -قال :" تزوجوا ولا تطلقوا فان الطلاق يهتز منه العرش " .

وعن أبى موسى قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم –:" لا تطلقوا النساء إلاَّ من رِيبة ، فإن الله - عز وجل – لا يحب الذواقين ولا الذواقات " .

رواه الطبراني فى المعجم الأوسط عن أبى موسى الاشعرى والبزار فى مسنده وفيه إنقطاع " عبادة بن نسئ " لم يلحق أبى موسى الاشعرى ، ومعنى الذواقين والذواقات هوان يكون الرجل كثير النكاح سريع الطلاق وهو بمنزلة الذائق للطعام غير الآكل منه أوالذى يَمِلُّ ما فى يده ، وينظر الى ما فى يد غيره . والذواقين جمع ذائق .

وعن أنس - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم –

" ما حلف بالطلاق ولا استحلف به إلا منافق " وعن " معاذ بن جبل " - رضي الله عنه - قال : قال لي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يا معاذ :" ما خلق الله شيئا على وجه الأرض أحب إليه من العتاق ولا خلق الله شيئا على وجه الأرض أبغض من الطلاق " .

إذا قال الرجل لمملوكه يعنى " العبد " أنت حر إن شاء الله فهو حر ولا إستثناء له .

وإذا قال الرجل لإمرأته أنت طالق إن شاء الله ، فله إستثناؤه، ولا طلاق عليه .

وقوله تعالى : " لِعِدَّتِهِنَّ " يقتضى أنهن الآتى دخلن بهن الأزواج ، لأن غير المدخول بهن خرجن بقوله تعالى :-

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ [سورة الأحزاب :٤٩]

فمن طلق فى طهر لم يجامع فيه نفذ طلاقه وأصاب السنة ، وإن طلقها حائض نفذ طلاقه وأخطأ السنة .

ويقول : " سعيد بن المسيب "- رحمه الله تعالى -

(لا يقع الطلاق فى الحيض لأنه خلاف السنة ،وهوالصحيح والصواب) .

وعن سيدنا عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - قال : طلقت إمرأتي وهى حائض ، فذكر ذلك عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - لرسول الله - صلى الله عليه وسلم- فَتَغَيَّظَ رسول الله - صلى الله عليه وسلم.

فقال : ليراجعها ، ثم ليمسكها حتى تحيض حيضة مستقبلة سوى حيضتها التى طلقها فيها ، فان بدا له أن يطلقها فليطلقها طاهراً من حيضتها قبل أن يمسها ، فذلك الطلاق للعدة كما أمر الله سبحانه .

وعن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - قال : طلاق السنة أن يطلقها فى كل طُهْرٍ تطليقة فإذا كان آخر ذلك ، فتلك هى العدة التى أمر الله تعالى بها . وقوله تعالى "وَأَحْصُواْ ٱلْعِدَّةَ" يعنى أحفظوها أي أحفظوا الوقت الذى وقع فيه الطلاق . وقوله تعالى "وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ" يعنى لا تعصوه "لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ "[سورة الطلاق :١].

يعنى لا تخرجوهن من مساكنهن بعد فراقكم لهن إلى أن تنقضي عدتهن .

"وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ "[سورة الطلاق :١].

يعنى ولا يخرجن من البيوت حتى تنقضي عدتهن إلا إذا قارفت المطلقة عملاً قبيحاً مثل " الزنا " فإنها عند ارتكابها جريمة الزنا تخرج لإقامة الحد عليها .

فقد نهى الله - سبحانه وتعالى- أن يخرج الرجل المرأة المطلقة من المسكن الذى طلقها فيه ، ونهاها هى أن تخرج باختيارها ، فلا يجوز لها المبيت خارجاً عن بيتها ، ولا أن تغيب عنه نهاراً إلا لضرورة التصرف ، وذلك لحفظ النسب وصيانة المرأة .

" وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ "[سورة الطلاق :١].

يعنى ومن يخرج عن هذه الأحكام ، ويتجاوزها إلى غيرها ، ولا يأْتَمر بها فقد ظلم نفسه وذلك بتعريضها للعقاب ، واضربها حيث أنه فَوّتَ على نفسه إمكان إرجاع زوجته إليه .

وهذا تشديد فيمن يتعدى طلاق السنة ، ومن يُطَلْقَ لغير العدة .

" لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا "[سورة الطلاق :١].

يعنى لا تعرف أيها السامع ماذا يحدث الله بعد ذلك الطلاق من الأمر فلعل الله يقلب قلبه من بغضها الى محبتها ، ومن الرغبة عنها إلى الرغبة فيها فيجعله راغباً فيها يعنى فى (زوجته) بعدما كان كارهاً لها .

قال بن عباس- رضي الله عنهما - يريد الندم على طلاقها ، والمحبة لرجعتها فى العدة .

" فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ "يعنى فإذا شارفن على إنقضاء العدة ، وقاربن ذلك فراجعوهن الى عصمة النكاح مع الإحسان فى صحبتهن كما أمر الله - عز وجل- أو لتركوهن حتى تنقضي عدتهن فيملكن أنفسهن .

يقول المفسرون الإمساك بالمعروف هوالإحسان فى العشرة ، وتوفية النفقة من غير قصد المضارة فى الرجعة لتطول عليها العدة ، والفراق بالمعروف هواداء الصداق والمتعة عند الطلاق ، والوفاء بالشروط مع توفية جميع حقوقها .

ويقول ابن كثير - رحمه الله تعالى – " العدة هى الطهر، والقرء هوالحيضة " ومن هنا أخذ الفقهاء أحكام الطلاق وقسموه الى طلاق سنة ، وطلاق بدعة " فطلاق السنة " هوان يطلقها طاهرةً من غير جماع أو حاملاً قد استبان حملها يعنى وضعت فطهارة الحامل أو إنقضاء عدتها هو وضعها لما فى بطنها من حمل .

لأن المقصود من ذلك كله هو (إستبراء الرحم) "والطلاق البدعى " هوان يطلقها فى حال الحيض ، أو فى طهر قد جامعها فيه ، فجماعه لها لا يدرى بعد ذلك أَحَمِلت أم لا. وطلاق ثالث لا هو سنة ولا هو بدعة (طلاق الصغيرة والآيسة وغير المدخول بها) .

ويقول صاحب " لطائف الإشارات " والطلاق وإن كان فراقاً لم يجعله الله - سبحانه وتعالى - محظوراً وإن كان من وَجْه مكروهاً ، وللطلاق وجوه مرتبطة بأوقات خاصة ، والعدة وإن كانت فى الشريعة لتخصيص ماء الزوج " محافظتاً على الأنساب لئلا يدخل على ماء الزوج ماء آخر.

فالغالب والأقوى فى معناها أنها للوفاء للصحبة الماضية فى وصلة النكاح والإشارة فى الآيات التالية الى أنه بعد أن انتهت الوصلة فلا أقل من الوفاء مدة لهذه الصغيرة التى لم تحض ، وهذه الآيسة من الحيض ، وتلك التى إنقطع حيضها والحبلى حتى تلد .

كل ذلك مراعاة للحرمة وعدة الوفاة تشهد على هذه الجملة فى كونها أطول لان حرمة الميت أعظم و كل ما ذكر مراعاة للوفاء والحرمة .

يقول "ابن القيم": " إن الله تعالى لما كان يبغض الطلاق ، لما فيه من انفصام عرى الزوجية وموافقة عَدُوَه " إبليس " حيث يفرح بافتراق الزوجين وكان مع ذلك يحتاج إليه الزوج والزوجة ، شرعه على وجه تحصل به المصلحة وتندفع به المفسدة ، وحرمه على غير ذلك الوجه ، فشرع له أن يطلقها طاهراً من غير جماع ، طلقة واحدة ، ثم يتركها حتى

تنقضي عدتها ، فان زالت أسباب الخلاف ، و حصلت الموافقة كان له سبيل إلى إعادتها و جعل العدة ثلاثة قُرُوء ليطول زمن المهلة والاختيار ، فهذا هوالذى شرعه وأذن فيه .

هذه أخلاق القرآن الكريم التى أمرنا الله – سبحانه وتعالى- وهى دستور المسلمين الذى ينظم جميع حياتهم حتى يكونوا من السعداء فى الدنيا والآخرة وما شقي المسلمون وعمهم الظلم ، وغشيهم النصب والنكد والتعب ، وتكدرت حياتهم إلا بعد أن تخلوا عن هذه الأخلاق ، بل حاربوها ، وناصبوها العداء ، وفى الحقيقة ما حاربوا إلا أنفسهم وجلبوا عليها التعب ، وانكدرت معيشتهم وإنحلت أخلاقهم ، وعمت الفوضى مجتمعاتهم وعاشوا حيارى لا يرقبون فرجاً ولا يجدون حلاً لهذه الأزمات ، ونسوا ، أو تناسوا أن الحل بين أيديهم وهو كتاب ربهم ، ودستوره الذى أنزله لينظم حيواتهم ، ويفصل فيما بينهم ويعالج ما يعن من مشكلات وأدواء . وذلك هوالقرآن الكريم الذى يأمرنا بالأخلاق ، وحسن الخلق فى كل معاملاتنا فهو البلسم الشافي ، والدواء الناجح ، والقانون الالهى الذى " لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد " [١] .

إنها أى الأخلاق السعادة كلها ، والعزا جمع . ثم نرى القرآن الكريم يوجهنا إلى الأخلاق الكريمة التى تُسْعِد الإنسان فى حياته وفى آخرته ، وطرق ذلك التوبة النصوح فيقول الله -عز وجل –" توبوا الى الله توبةً نصوحا " .

وهى أن يقلع عن الذنب مع عدم العودة إليه ، وقد سُئِلَ سيدنا " عمر بن الخطاب"- رضي الله عنه – عن التوبة النصوح فقال : هى أن يتوب ثم لا يعود إلى الذنب، كما لا يعود اللَّبن الى الضرع .

ويقول العلماء التوبة النصوح هى التى جمعت ثلاثة شُرُوط :

أولها الإقلاع عن الذنب .

وثانيها الندم على ما حدث .

---

1 - البخارى و مسلم .

وثالثها هوالعزم على عدم العودة إليه ، وإن كان الحق لأدمى زيد شرطاً.

رابعها وهو رد المظالم إلى أصحابها ، وذلك لعل الله يرحمكم بمحو ذنوبكم فضلاً من الله سبحانه وتكرماً ، ويدخلكم فى الآخرة حدائق وبساتين ناضرة تجرى من تحت قصورها أنهار الجنة ، يوم لا يفضح الله النبي – صلى الله عليه وسلم – وأتباعه المؤمنين أمام الكافرين ، بل يعزهم ويكرمهم . وفيه تعريض عمن أخزاهم الله تعالى من أهل الكتاب والفسوق ، ونوره وآلاء المؤمنين يضئ لهم على الصراط و يسطع أمامهم وخلفهم ، وعن إيمانهم وشمائلهم مثل إضاءة القمر فى جنح الظلام ويعون الله تعالى قائلين : يا ربنا أكمل علينا هذا النور ، وَأَدُمْه لنا ، ولا تتركنا نتخبط فى الظلمات ، وغياهيب الظُلَّم .

يقول "عبد الله بن عباس"- رضي الله تعالى عنهما-هذا دعاء المؤمنين حيث أطفأ الله نور المنافقين .

يدعون ربهم إشفاقا حتى يصلوا الى الجنة ، ثم يدعون ربهم كذلك .

ربنا إمسح عنا ذنوبنا ، وإسرافنا فى أمرنا ، وثبت أقدامنا إنك أنت القادر على كل شيء ، والغفار لكل ذنب ، والرحيم بكل عاصٍ فأنت القهار القادر على كل شيء من المغفرة ، والعقاب ، والرحمة ، والعذاب .

قال – سبحانه وتعالى – ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾[سورة البروج:١٦].

ويقول صاحب " لطائف الإشارات " إن التوبة النصوح هى التى لا يعقبها نقص وقيل هى التى تراها فى نفسك ، ولا ترى نجاتك بها ، وانما تراها بربك وقيل : هى التى تجد مرارتها فى قلبك عند ذكرها وتذكرك ما وقعت فيه من خطأ مثل ما كنت تجد الراحة لنفسك فعلها . وذلك يوم لا يخزى الله نبيه . صلى الله عليه وسلم . بترك شفاعته ، والذين آمنوا معه بافتضاحهم بعدما قبل فيهم شفاعته وعبر بقوله :" نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم " عن أن الأيمان من جميع جهاتهم .

ويقال " بأيمانهم " هو كتاب نجاتهم ، وأراد نور توحيدهم ، ونور معرفتهم ونور إيمانهم ، وما يخصهم الله به من الأنوار فى ذلك اليوم .

" يقولون ربنا أتمم لنا نورنا " يعنى يستديمون الإبتهال والتضرع فى السؤال .

ويسأل سائل " أبى بن كعب " - رضي الله عنه - قائلا: فما التوبة النصوح ؟ فقال : سألت رسول الله - صلى الله عليه وسلم- عن ذلك فقال : " هوالندم على الذنب حين يفرط منك فتستغفر الله بندامتك منه عند الحاضر، ثم لا تعود إليه أبدا "

ويقول صاحب " التحرير والتنوير " أمر الله المؤمنين بالتوبة من الذنوب إذا ما ارتكبوها ، وتلبسوا بها ، لأن ذلك من إصلاح أنفسهم ، وذلك بعد أن أمروا بأن يجنبوا أنفسهم وأهليهم ما يكون سبباً فى دخول النار ، لأن إتقاء النار يتحقق بإجتناب ما يرمى بهم فيها ، وقد يزهلون عما فرط من سيئاتهم ، فهدوا إلى سبيل التوبة التى يمحون بها ما فرط من سيئاتهم .

هذا هو خلق القرآن الكريم الذى يرشدنا إلى ما يكون سبباً فى سعادتنا فى الدار الآخرة ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [سورة الشعراء٨٨ :٨٩].

و يحذرنا من إجتراح السيئات ، ثم يرشدنا إلى العلاج الناجح ، والبلسم الشافي وهوالتوبة من الذنوب شريطة ألا يعود إلى ما إرتكب من ذنوب ، وإجترح من سيئات واقترف من أخطاء ليغفر الله لنا ذنوبنا ، ويكفر عنا سيئاتنا ويدخلنا الجنة مع الأبرار ولا يخزنا يوم القيامة أمام الكافرين و المنافقين الفجار هذه أخلاق القرآن الكريم ، والذى لا ريب فيه هدى للمتقين .

وفى الحديث أن النبي - صلى الله عليه وسلم- سُئِلَ كيف تعرف أمتك يوم القيامة من بين الأمم ؟

فقال النبي - صلى الله عليه وسلم :- " إنهم يأتون غراً محجلين من آثار الوضوء " يعنى تسطع جباههم ، وأيديهم بالنور من آثار الطهور ، فيعرفهم بذلك رسول

الله -صلى الله عليه وسلم- إنها بشرى عظيمة لأتباع محمد - صلى الله عليه وسلم - وللمحافظين على الصلاة ، والمسبغين للوضوء ، والمداومين على الطهارة ، فهنيئاً لأمته سيدنا محمد- صلى الله عليه وسلم - وهى أُمة الوضوء ، والركوع ، والسجود ، والطهر والطهارة والعفة ، والعفاف ، والزكاة ، والصدقة ، والصوم، والحج ، والعمرة ، والإنفاق والجهاد فى سبيل الله بالمال والنفس [١] .

1 - تفسير الخازن ، جـ ٤ ، ص ١٢١ .

" حسن الخلق من الايمان "

ومن الأخلاق التى حث عليها القرآن الكريم ، وأمر المسلمين أن يتحلوا بها ويتخذوها نبراساً يضئ أمامهم الطريق ، وتكون منجاةً لهم فى الدار الآخرة ، فكل إنسان جاهل بعيوب نفسه ، فإذا جاهد نفسه أدنى مجاهدة حتى ترك فواحش المعاصي ربما يظن بنفسه أنه هذب نفسه ، وَحَسن خلقه ، واستغنى عن المجاهدة فلابد من إيضاح علاقة حُسْن الخلق ، فان حسن الخلق هوالإيمان ، وسوء الخلق هوالنفاق ، وقد ذكر الله تعالى صفات المؤمنين والمنافقين فى كتابه العزيز ، وهى بجملتها ثمرة حسن الخلق ، وسوء الخلق ، قال الله تعالى :-﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾﴾[سورة المؤمنون١ :٣].

إلى قوله تعالى :-﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾﴾[سورة المؤمنون١٠ :١١].

وقال -عزوجل- : ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ...﴾ [سورة التوبة:١١٢].

إلى قوله تعالى :" وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ "

وقال- سبحانه وتعالى- ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾ [سورة الأنفال١ :٤].

يقول - عزوجل -: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾﴾ [سورة الفرقان:٦٣].

إلى آخر السورة التى تحكى صفات المؤمنين الذين تخلقوا بخلق القرآن الكريم وقد وصف رسول الله -صلى الله عليه وسلم -المؤمن بصفات كثيرة ، وأشار بجمعها إلى محاسن الأخلاق ، فقال -صلى الله عليه وسلم -" المؤمن يحب لأخيه ما يحبه لنفسه " .

وقد أخرجه الشيخان من حديث أنس :-

" لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه "

وقال - عليه السلام –

" من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه " (١) .

وقال - صلى الله عليه وسلم-

" من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره "(٢).

وقال - صلى الله عليه وسلم-

" من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت "(٣).

فصفات المؤمنين هى حسن الخلق ، فقال- صلى الله عليه وسلم –

" لا يحل لمسلم أن يروع مسلماً " (٤) .

وقال- صلى الله عليه وسلم –

" لا يحل لمؤمن أن يشير الى أخيه بنظرة تؤذيه " (٥).

ويجمع بعضهم علاقات حسن الخلق فيقول :

" علامات حسن الخلق هو ان يكون كثير الحياء ، قليل الأذى ، كثير الصلاح صدوق اللسان ، قليل الكلام ، كثير العمل ، قليل الزلل، قليل الفضول ، براً وصولاً ، وقوراً جسوراً ، شكوراً ، رضياً ، حليماً ، رفيقاً ، عفيفاً ، شفيقاً ، لا لعاناً ولا سباباً ، ولا نماماً ولا مغتاباً ، ولا عجولاً ، ولا حقوداً ، ولا نجيلاً ، ولا حسوداً بشاشاً هشاشاً ، يحب فى الله ويبغض فى الله ، ويرضى فى الله ، ويغضب فى الله " فهذا هو حسن الخلق .

وقد وصف الله نبيه – صلى الله عليه وسلم- فى القرآن العظيم بقوله . سبحانه وتعالى- ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ [سورة القلم:٤] (٦).

ولقد بين النبي – صلى الله عليه وسلم – الغاية من بعثته ، والهدف من رسالته بقوله – صلى الله عليه وسلم –:" إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق " .

---

١ - متفق عليه من حديث ابى شريح الخزاعى ، ومن حديث ابى هريرة .
٢- متفق عليه من حديثهما وهو بعض الحديث الذى قلته .
٣- متفق عليه ايضاً من حديثهما ، وهو بعض الذى قلته .
٤- متفق عليه من حديث ابى شريح الخزاعى ، ومن حديث ابى هريرة .
٥- متفق عليه من حديثهما وهو بعض الحديث الذى قلته .
٦- متفق عليه ايضاً من حديثهما ، وهو بعض الذى قلته .

فأركان الإسلام جميعاً بفروضها وسنتها مرجعها الأخلاق ، ولنأخذ أمثلةً لذلك الصلاة مثلاً وهى ركن من أركان الإسلام ، غير مقبولة عند الله -عز وجل - ما لم يكن المصلى ، متسلحاً بالأخلاق الكريمة يقول النبي -صلى الله عليه وسلم - فيما يرويه عن رب العزة " إنما أتقبل الصلاة ممن تواضع بها لعظمتي ولم يستطل على خلقي ، ولم يَبُت مصراً على معصيتي ، وَقَطَع النهار فى ذكرى ، ورحم المسكين والأرملة ، والمصاب وابن السبيل " وجاء أناس لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقالوا له :

إن فلانة تصلى كثيراً ، ولكنها تؤذى جيرانها بلسانها ، فقال -صلى الله عليه وسلم - لا خير فيها ، هى من أهل النار ، ثم قالوا له : إن فلانة لا تصلى كثيراً ولكنها تتصدق على جيرانها بأثواب القطن فقال : صلى الله عليه وسلم - هى من أهل الجنة .

وجاء أعرابي الى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وكان له دين عند رسول الله- عليه السلام - فقال له : يابن عبد المطلب إنكم قوم مُطَل ، يعنى لا تسددون الديون فى مواعيدها فقام عمر بن الخطاب - رضي الله عنه- وأراد أن يضرب عنقه حيث أنه تطاول على مقام النبوة ، فقال له رسول الله- صلى الله عليه وسلم -أنا وهو اولى منك بهذا كان من واجبك يا عمر أن تأمر الأعرابى بحسن التقاضي وأن تأمرني بحسن الأداء .

ويروى أن النبي - صلى الله عليه وسلم -جاءه مال فوزعه ولم يَبْقّ لنفسه شيئاً ويجئ أعرابى ويقول له :أعطني من هذا المال فهو ليس مالك ولا مال أبيك ، فأراد عمر بن الخطاب - رضي الله عنه- أن يضرب عنقه ، لأنه تطاول على مقام النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال له -عليه السلام :" نفد ما عندي من مال ، ولكن أذهب فابتع على ، يريد اذهب فاشترى ما تحتاجه على حسابي الخاص ، فقام عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- وقال له يا رسول الله ما كلفك الله مالا تطيقه ، فقام رجل من الأنصار وقال لرسول الله - عليه السلام - يا رسول الله أنفق ولا تخف من ذي العرش إقلالا، تبسم النبي - صلى الله عليه وسلم- وقال بهذا أمرت .

ولذاك وصفه ربه- عز وجل - بحسن الخلق فقال له- عليه السلام -

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ [سورة القلم:٤].

يعنى وإنك يا محمد لعلى أدب رفيع جميل ، وخلق فاضل كريم ، فقد جمع الله فيك الفضائل والكمالات ، فيا له من شرف عظيم لم يدرك شأنه بشر، فرب العزة- سبحانه وتعالى - يصف محمد بهذا الوصف الجليل ، وقد كان من خلقه صلى الله عليه وسلم - العلم ، والحلم ، وشدة الحياء ، وكثرة العيان ، والسخاء والصبر ، والشكر ، والتواضع والزهد ، والرحمة ، والشفقة ، وحسن المعاشرة ،والأدب الى غير ذلك من الخلال العلية والخصال المرضية.

واخرج الشيخان عن أنس- رضي الله عنه - " خدمت رسول الله- صلى الله عليه وسلم- عشر سنين فما قال لي أُفْ قط ، ولا قال لي لشيء فعلته لما فعلته ؟

ولا لشيء لم افعله إلا فعلته ؟

وكان - صلى الله عليه وسلم - أحسن الناس خلقاً ، وما مسست خزا ولا حريراً ولا شيئاً كان أليَّن من كف رسول الله -صلى الله عليه وسلم - ولا شممت مسكاً ، ولا عطراً كان أطيب من عَرَق رسول الله -صلى الله عليه وسلم . " (١).

وفى البخاري عن عائشة - رضي الله عنها- لما سُئِلت عن خلقه . صلى الله عليه وسلم- " كان خلقه القرآن " تعنى التأديب بآدابه ، ويقول الشاعر:

إذا الله أثنى بالذى هو أهله ... عليك فما مقدار ما تمدح الورى

ويقول الإمام القشيرى :" كما عرفه الله سبحانه ، أخبار من قبله من الأنبياء عرفه أنه إجتمعت فيه متفرقات أخلاقهم فقال له:﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [سورة القلم:٤].

ويقال " أنه عرض عليه مفاتيح الأرض فلم يقبلها ، ورقاه ليلة المعراج وأراه جميع الملكة والجنة فلم يلتفت إليها ، فقال تعالى:

١- اخرجه البخارى ومسلم .

﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴾ [سورة النجم :١٧].

فما التفت يميناً ولا شمالاً، ولهذا قال تعالى :

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [سورة القلم :٤].

ويقال " على خلق عظيم " ، لا بالبلاء تنحرف ، ولا بالعطاء تنصرف احتمل- صلوات الله عليه .فى الأذى شج رأسه وثغره ، وكان يقول :" اللهم إغفر لقومي فإنهم لا يعلمون " وغداً كُلٌ يقول نفسي نفسي .

وهو- صلوات الله عليه - يقول " أمتي أمتي " ويقال : علمه محاسن الأخلاق بقوله ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ ﴾ [سورة الأعراف :١٩٩].

وقد سأل - صلوات الله عليه -جبريل - عليه السلام- قائلا : بماذا يأمرني ربى ؟

قال : يأمرك بمحاسن الأخلاق ، يقول لك " صل من قطعك ، واعط من حرمك واعْفِ عمن ظلمك ، فتأدب بهذا فاثني عليه وقال :

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ [سورة القلم :٤].

ويقول " القرطبي " : يقول ابن عباس ومجاهد - رضي الله عنهم- على خلق أى على دين عظيم من الأديان ، ليس دين أحب إلى الله تعالى ولا أرضى عنده منه .

وقال على- رضي الله عنه - وعظيم " هوادب القرآن وقيل : هو رفقه بأمته وإكرامه إياهم " وقال قتادة - رضي الله عنه -هو ما كان يأتمر به من أمر الله ، وينتهي عنه مما نهى الله عنه ، وقيل أى إنك على طبع كريم وحقيقة الخلق فى اللغة هو ما يأخذ به الإنسان نفسه من الأدب يسمى خُلُقاً ، لأنه يصير كالخلقة فيه ، وأما ما طبع عليه من الأدب فهوالخِيم بكسر الخاء وهوالسجية والطبيعة ، ولا واحد له من لفظه ، " وخيم " هواسم جبل .

والخيم هوالطبع الغريزى يقول الأعشى :

وإذا ذوالفضول ضن على المو ... تى وعادت لخيمها الأخلاق

يعنى رجعت الأخلاق إلى طبائعها .

ومن خلقه- صلى الله عليه وسلم- ما ترويه لنا السيدة الفضلى " عائشة بنت أبى بكر - رضي الله عنها -فتقول : ما كان أحد أحسن خلقاً من رسول الله- صلى الله عليه وسلم- ما دعاه أحد من الصحابة ، ولا من أهل بيته إلا قال " لبيك " وسمى خلقه عظيماً لأنه لم تكن له همة - عليه السلام - سوى الله تعالى ، وقيل سمى خُلُقــه عظيماً لإجتماع مكارم الأخلاق فيه - صلى الله عليه وسلم - يدل عليه قوله- عليه السلام.

" أدبني ربى تأديباً حسناً " إذ قال :" خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين "

فلما قيلت ذلك قال : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ [سورة القلم :٤]

ويقول- صلى الله عليه وسلم - " أتق الله حيثما كنت ، وأتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلقٍ حسن " .

وقال : أيضا " ما من شيء أثقل فى ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن وإن الله تعالى ليبغض الفاحش البذيء " .

وقال -صلى الله عليه وسلم - " حسن الخلق فى الجنة ، وسوء الخلق فى النار " وكانت السيدة الفضلى " عائشة بنت أبى بكر- رضي الله عنها -تقول إذا نظرت الى المرآة لتحسن هندامها " اللَّهم كما حسنت خَلْقِــي فحــسن خُلُقِــي " يعنى كما حسنت شكلي وصورتي ، فحسن أخلاقى .

وعن عبد الله بن المبارك أنه وصف حسن الخلق فقال : " هو بسط الوجه وبذل المعروف ، وكف الأذى " وعن جابر أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم- قال :" إن من أحبكم إلي ، وأقربكم منى مجلساً يوم القيامة أحسنكم أخلاقاً ، وقال- عليه السلام- وإن أبغضكم إلى ، وأبعدكم منى مجلساً يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون ، والمتفيهقون ، قالوا يا رسول الله قد علمنا الثرثارون والمتشدقون ، فما المتفيهقون ؟ قال - صلى الله عليه وسلم- المتكبرون " .

ويحكى أن الصوفي الزاهد " إبراهيم بن أدهم " خرج يوماً إلى بعض البراري فاستقبله رجل جندي فقال : أنت عبد ؟ .

قال : نعم ، فقال له : أين العمران فأشار الى المقبرة ، قال الجندي : إنما أردت العمران ، فقال : هو المقبرة ، فغاظه ذلك فضرب رأسه بالسوط فشجه ، ورده إلى البلد فاستقبله أصحابه فقالوا : ما الخبر ؟ فأخبرهم الجندي ما قال له إبراهيم بن ادهم فقالوا : هذا إبراهيم بن أدهم فنزل الجندي عن فرسه وقبل يده ورجليه وجعل يعتذر إليه .

فقيل له بعد ذلك لما قلت له أنا عبد ؟ فقال إبراهيم بن أدهم : انه لم يسألني عبد من أنت ؟ بل قال لي : أنت عبد ؟ قلت نعم . لأنى عبد الله ، فأما ضرب رأسي سألت الله له الجنة ، قيل له كيف وقد ظلمك ؟

فقال إبراهيم بن أدهم : علمت أننى أثاب على ما نالني منه فلم أرد أن يكون نصيبي منه الخير، ونصيبه منى الشر.

فهذه نفوس قد زللت بالرياضة ، فاعتدلت أخلاقها ، وسلمت ، ونقيت من الغش والغل ، والحقد يواطنها فأثمرت الرضا بكل ما قدره الله تعالى ، وذلك حسن الخلق فإن من يكره فعل الله تعالى ولا يرضى به فهو غاية سوء خلقه ، هذه هى أخلاق القرآن الكريم والتى لو تخلق بها المسلمون لسعدوا فى الدنيا والآخرة [(١)] .

ويقول الإمام الشهيد " سيد قطب " فى معنى هذه الآية " وإنك لعلى خلق عظيم " وتتجاوب أرجاء الوجود بهذا الثناء الفريد على النبي الكريم -صلى الله عليه وسلم -

---

1 - احياء علم والدين ، للغزالى جـ ٣ ، ص ٦٨ ، وما بعدها .
- تفسير القرآن لابن كثير ، جـ ٤ ، ص ٤٠٢ ، و ما بعدها .
- تفسير القرطبي ، جـ ١ ، ص ٦٧٠٦ ، وما بعدها .
- لطائف الاشارات للقشيرى جـ ٣ ، ص ٦١٧.
- تفسير ابى السعود جـ ٥ ، ص ٧٥٢ ، ط دار الفكر .
- تفسير مفاتيح الغيب ، للفخر الرازى .
- فى ظلال القرآن للامام الشهيد سيد قطب ، جـ ٦ ، ص ٣٦٥٦ ، وما بعدها .
- تفسير النسفى جـ ٤ ، ص ٢٧٩ ط دار الفكر .
- البحر المحيط جـ١٠ ، ص ٢٣٦ ، ط دار الفكر للطباعة والنشر سنة ١٤١٢ هـ ، ١٩٩٢م.

ويثبت هذا الثناء العلوي فى صميم الوجود ، ويعجز كل قلم ،كما يعجز كل تصور ، عن وصف قيمة هذه الكلمة العظيمة من رب الوجود – سبحانه –وهى شهادة من الله تعالى فى ميزان الله لعبد الله ، ويقول له فيها " وإنك لعلى خلق عظيم " ومدلول الخلق العظيم هو ما هو عند الله مما لا يبلغ الى إدراك مداه أحد من العالمين .

ودلالة هذه الكلمة العظيمة ، على عظمة سيدنا محمد – صلى الله عليه وسلم – تبرز من نواحٍ شَتْى.

أولاً : تبرز من كونها كلمة من الله الكبير المتعال ، يسجلها ضمير الكون ، وتنبت فى كيانه وَتُرَدْد فى الملأ الأعلى إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

ثانياً : والجانب الآخر هوطاقة محمد . صلى الله عليه وسلم . لتلقيها ، وهو يعلم من ربه هذا ، قائل هذه الكلمة من هو؟ وما عظمته؟ وما دلالة كلماته؟وما مداها ؟ .

إن إطاقة محمد . صلى الله عليه وسلم . لتلقى هذه الكلمة من هذا المصدر وهو ثابت لا ينسحق تحت ضغطها الهائل . فتلقيه لها فى طمأنينة ، وتماسك وتوازن ، كل ذلك يعطى دليلاً على عظمة شخصيته فوق كل دليل .

ثالثاً : حقيقة هذه النفس ، وهى نفس رسول الله – صلى الله عليه وسلم –من حقيقة هذه الرسالة ، وعظمة هذه النفس من عظمة هذه الرسالة[١].

وهذه اللَّفتة لها دلالتها على تمجيد العنصر الاخلاقى فى ميزان الله سبحانه وتعالى– وأصالة هذا العنصر فى الحقيقة الإسلامية كأصالة الحقيقة المحمدية .

والناظر فى هذه العقيدة ، مثل الناظر فى سيرة رسولها– صلى الله عليه وسلم– يجد العنصر الأخلاقى بارزاً أصيلاً فيها ، تقوم عليه أصولها التشريعية وأصولها التهذيبية على السواء ، ..... الدعوة الكبرى فى هذه العقيدة الى " الطهارة والنظافة ، والأمانة والصدق ، والعدل ، والرحمة ، والبر ، وحفظ العهد ، ومطابقة القول للفعل ، ومطابقتهما معاً

١ ـ فى ظلال القرآن للامام الشهيد " سيد قطب " ج٦ ، ص ٣٦٥٦ بتصرف .

للنية والضمير، والنهى عن الجور، والظلم، والخداع والغش وأكل أموال الناس بالباطل والإعتداء على الحرمات والأعراض، وإشاعة الفاحشة بأي صورة من الصور، والتشريعات فى هذه العقيدة لحماية هذه الأسس وصيانة العنصر الأخلاقى فى الشعور، والسلوك وفى أعماق الضمير، وفى واقع المجتمع، وفى العلاقات الفردية، والجماعية، والدولية على السواء.

والرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم – يقول:"إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق" فيلخص رسالته فى هذا الهدف النبيل، والغاية السامية، والغرض الشريف ميتغياً من وراء ذلك بناء مجتمع مسلم قوى متماسك خالٍ من الأمراض المجتمعية كالغش والنفاق، والكذب، والخيانة، متصف بالأمانة، والصدق، والوفاء والإخلاص، والأخلاق التى أرشدنا إليها ربنا - عز وجل- فى كتابه الكريم.

﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ٢﴾ [سورة البقرة :٢].

" الإستقامة "

ومن الأخلاق الكريمة التى أرشدنا إليها القرآن الكريم قوله تعالى :-

﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾ ﴾ [سورة القلم ١٠ :١٦].

قيل أنه " الوليد بن المغيرة " وإنه هوالذى نزلت فيه كذلك آيات من سورة " المدثر " وهى قوله تعالى :-

﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّا ۖ إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [سورة المدثر ١١ :٢٦].

ورويت عنه مواقف كثيرة فى الكيد لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - وإنزار أصحابه والوقوف فى وجه الدعوة ، والصد عن سبيل الله ، كما قيل أن آيات سورة القلم نزلت فى " الأخنس بن شريق " وكلاهما كانوا ممن خاصموا رسول الله - صلى الله عليه وسلم- وَلَجُوا فى حربه ، والتأليب عليه أمداً طويلا .

وهذه الحملة القرآنية العنيفة فى هذه السورة ، والتهديدات القاصمة فى السورة الأُخرى وفى سِوَاها شاهد على شدة دوره سواء كان" الوليد أوالأخنس " والأول أصح وأرجح فى حرب الرسول والدعوة ، كما هى شاهد على سوء طويته وفساد نفسه ، وخلوها من الخير ، والقرآن الكريم يصفه هنا بتسع صفات كلها ذميمة فهو " حلاف " ، ولا يكثر الحلف إلاَّ إنسان غيرصادق ، يدرك أن الناس يكذبونه ، ولا يثقون به فيحلف ، ويكثر من الحلف ليدارى كذبه ، ويستحل ثقة الناس ، وهو أيضاً " مهين " يعنى لا يحترم نفسه ولا يحترم الناس قوله ، وآية مهانته حاجته الى الحلف ، وعدم ثقته بنفسه ، وعدم ثقة

الناس به ، ولو كان ذا مال وبنين وذا جاه ، فالمهانة صفة نفسية تلصق بالمرء ولو كان سلطاناً طاغية جباراً ، والعزة صفة نفسية لا تفارق النفس الكريمة ولو تجردت من كل أعراض الحياة الدنيا ، وهو " همار " يهمز الناس ويعيبهم بالقول والإشارة فى حضورهم وفى غيبتهم ، وهذا الخلق يكرهه الإسلام ، حيث أنه يخالف المروءة كما هو مخالف لأدب النفس ، ويخالف الأدب فى معاملة الناس وحفظ كراماتهم صغروا أم كبروا وقد تكرر ذم هذا الخلق فى القرآن فى غير موضع ، فقال سبحانه :

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ [سورة الهمزة :١].

وقال سبحانه :﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ ۖ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١١﴾﴾ [سورة الحجرات :١١] .

وهو " مشاء بنميم " يمشى بين الناس بما يفسد قلوبهم ، ويقطع صلاتهم ويذهب بموداتهم ، وهو خُلُق ذميم ، كما أنه خلق مهين لا يتصف به ، ولا يقدم عليه إنسان يحترم نفسه ، أو يرجو لنفسه إحتراماً عند الآخرين حتى أولئك الذين يفتحون آذانهم للنمام وناقل الكلام ، المشاء بالسوء بين الأوداء حتى الذين يفتحون آذانهم له لا يحترمونه فى قرارة أنفسهم ، ولا يؤذونه ، ولقد كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ينهى أن ينقل إليه أحداً ما يغير قلبه على صاحب من أصحابه ، وكان يقول - صلى الله عليه وسلم – " لا يبلغني أحد عن أحد من أصحابي شيئا فأنى أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر " .

وثبت فى الصحيحين من حديث مجاهد عن طاووس عن ابن عباس- رضي الله عنهم أجمعين - قال : مر رسول الله -صلى الله عليه وسلم - بقبرين فقال : إنهما ليعذبان وما يعذبان فى كبير ، أما أحدهما فكان لا يستتر من البول وأما الآخر فكان يمشى بالنميمة " وروى الإمام أحمد بإسناده عن حذيفة قال : سمعت رسول الله- صلى الله عليه

وسلم- يقول :-" لا يدخل الجنة قتات " يعنى نمام ورواه الجماعة إلاَّ ابن ماجة ، وروى الإمام أحمد كذلك بإسناده عن يزيد بن السكن أن النبي - صلى اللّٰه عليه وسلم.

قال " أَلاَ أخبركم بخياركم ؟

قالوا : بَلى يا رسول اللّٰه ، قال الذين إذا رؤوا ذكر اللّٰه -عز وجل - ثم قال أَلاَ أخبركم بِشِرَاركم ؟

المشاءون بالنميمة المفسدون بين الأحبة ، الباغون للبرءاء بالعيب " ولم يكن للإسلام بد أن يشدد فى النهى عن هذا الخُلُق الذميم ، الوضيع الذى يُفْسِدُ القلب كما يفسد الصحب ويتدنى بالقاتل قبل أن يفسد بين الجماعة ، ويأكل قلبه وخلقه قبل أن يأكل سلامة المجتمع ، ويفقد الناس الثقة بعضهم ببعض ، كما أنه يجنى على الأبرياء فى معظم الأحايين ، وهوايضاً " مناع للخير " ، يمنع الخير عن نفسه وعن غيره ، ولقد كان يمنع الإيمان وهو جماع الخير ، وعرف عنه أنه كان يقول لأولاده وعشيرته كلما آنس منهم ميلاً الى النبي - صلى اللّٰه عليه وسلم - لإن تبع دين محمد منكم أحد لا انفعه بشيء أبداً.

فكان يمنعهم بهذا التهديد عن الإسلام ومن هنا يسجل القرآن الكريم عليه هذه الصفة المذمومة " مناعاً للخير " وهو معتمد ، متجاوز للحق والعدل ، ثم هو معتدٍ على النبي- صلى اللّٰه عليه وسلم . وعلى المسلمين ، وعلى أهله وعشيرته الذين يصدهم عن الهدى وإعتناق الإسلام ، وهو " أثيم " يرتكب المعاصي حتى يحق عليه الوصف الثابت " أثيم " دون تحديد لنوع الإثم الذى يرتكبه ، وهو بعد هذا كله " عتل " وهى لفظة تعبر عن مجموعة من الصفات ، ومجموعة من السمات لا تبلغها مجموعة الفاظ وصفات ، حيث أن العَتَل هو الغليظ الجافي ، والأكول الشروب ، وأنه الشره المنوع ، وأنه أَلَفظ فى طبعه ، اللَّئيم فى نفسه ، السيئ فى معاملته .

وعن أبى الدرداء - رضي اللّٰه عنه -" العتل " كل رغيب الجوف ، وثيق الخلق أكول شروب ، جَمُوع للمال ، منوع له . ولكن تبقى كلمة "عتل" بذاتها أول على كل هذا

وأبلغ تصوير للشخصية الكريهة من جميع الوجوه ، وهوايضاً " زنيم " وهذه خاتمة الصفات الذميمة التى تجمعت فى عدو من أعداء الإسلام ومعنى الزنيم ، هو ابن الزنا ، يقول " حسان بن ثابت "- رضي الله عنه - زنيم ليس يعرف من أبوه خبيث العرض ذو حسب لئيم ، ثم يجئ التهديد من الله - عز وجل- بقوله تعالى :-

﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلۡخُرۡطُومِ ﴿١٦﴾﴾ [سورة القلم :١٦].

ومن معانيه طرف أنف الخنزير البرى ، ولعله هوالمقصود هنا ، كنايةً عن أنفه والأنف فى لغة العرب يكنى به عن العزة فيقال " أنف أشم " للعزيز و" أنف فى الرغام " للذليل ، يعنى فى التراب .

ويقال : ورم أنفه ، وَحَمِىَّ أنفه إذا غضب معتزاً ، ومنه الأنفة ، والتهديد بوسم على الخرطوم يحوى نوعين من الإذلال والتحقير :الأول : الوسم كما يوسم العبد . والثاني : هو جعل أنفه خرطوماً مثل خرطوم الخنزير ، ولا ريب فى أن وَقْع هذه الآيات كان قاسياً وقاصماً ، لنفسية الوليد ويقول " المراغى " : ولا تطع المكثار من الحلف بالحق وبالباطل والكاذب يتقى بأيمانه الكاذبة التى يجترئ بها على الله ضعفه ومهانته أمام الحق ، وفيه دليل على عدم إستشعاره الخوف من الله فالكذب أساس كل شر ، ومصدر كل معصية وكفى مزجرة لمن إعتاد الحلف أن جعله الله - سبحانه وتعالى - فاتحة المثالب ، وأس المعايب ، وهو محتقر الرأي والتفكير ، وعياب وطعان يذكر الناس بالمكروه ، وينال من أعراضهم وذلك بذكر معايبهم ومثالبهم ، ونقال للحديث من قوم إلى قوم على وجه الإفساد بينهم وأصل النميمة الحركة الخفيفة ، ومنه " أسكت الله نأمته " يعنى ما ينم عليه من حركته ، وبخيل بماله ممسك له ، لا يجود به لدى البأساء والضراء ، لا يدفع عوز المعوزين ولا يساعد البأساء المحتاجين ولا ينجد الأمة إذا ضربها الأمر ، وضاقت بها السبل ، مثل دفع عدو هاجم البلاد أو دفع كارثة نزلت بها ،متجاوزاً لما حده الله لأوامر وَنَواهٍ ، فهو

يخوض فى الباطل خوضه فى الحق ولا يتحرج عن إرتكاب المآثم والمظالم ، كثير الآثام والذنوب ، وفوق ذلك فظ غليظ جاف يعامل الناس بالغلظة والفظاظة .

عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال : وهوالرجل الذىَّ يمر على القوم فيقولون رجل سوء ، وإذ تُتْلَى عليه آيات الله قال هذا من كلام البشر ، ومن قصص الأولين، من كانت هذه صفاته سنجعل له سمة وعلامة على أنفة ، والمراد أننا سنفضح أمره ، وهذا منتهى الإذلال والمهانة يقول " جرير " :

لما وضعت على الفرزدق ميسمي وعلى البعيث جدعت انف الأخطل

ففى الدنيا سنذله غاية الإذلال ، ونجعله مشهوراً بالشر ، ويوم القيامة نسمه على أنفه ليعرف بذلك كُفْرَهُ وإنحطاط قدره ، ويقول الشاعر أيضا:

ومولى كبيت النمل لا خير عنده لمولاه إلا سعيه بنميم

وفى صحيح مسلم عن " حارثة بن وهب " سمع النبي - صلى الله عليه وسلم - " قال : أَلاَ أخبركم بأهل الجنة قالوا : بَلَى ، قال : كل ضعيف مستضعف لواقسم على الله لأبر ، ألا أخبركم بأهل النار قالوا : بلى ، قال : كل عتل جواظ مستكبر " وفى رواية عنه " كل جواظ زنيم متكبر " والجواظ هوالجموع المنوع ، وقيل كثير اللَّحم المختال فى مشيته .

وقال - صلى الله عليه وسلم - " لا تزال أمتى بخير ما لم يغش فيهم ولد الزنا فإذا فشا فيهم ولد الزنى أوشك أن يعمهم الله بعقاب .

ويقول " عكرمة " - رضي الله عنه – " إذا كثر ولد الزنا قحط المطر "

ومن سمات هؤلاء أيضاً وصفهم فى القرآن الكريم:-

﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ... ﴾ [سورة آل عمران :١٠٦]

وقال تعالى : ﴿... وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾﴾ [سورة طه :١٠٢] .

ويقول الأعشى فى هذا المعنى :

دعها وما يغنيك وأعمد لغيرها　　　　يشغرك واغلب انف من أنت واسم

ويقول " النضر بن شميل " المعنى سَنَحِدْهُ على شرب الخمر، والخرطوم هى الخمر والجمع خراطيم، قال الشاعر :

تظل يومك فى لهو وفى طرب　　　　وأنت بالليل شراب الخراطيم

وقال آخر :

أبا حاضر من يذق يعرف زنأؤه　　　　ومن يشرب الخرطوم يصبح مسكراً

قال بن عباس- رضي الله عنهما -" لا نعلم أحد وصفه الله بهذه العيوب غير هذا فالحق به عاراً لا يفارقه أبدا، وإنما ذم بذلك لان النطفة إذا خبثت خبث الولد وروى أن الآية لما نزلت جاء الوليد الى أمه فقال لها :

" إن محمد وصفنى بتسع صفات، كلها ظاهرة في أعرفها غير التاسع منها يريد أنه " زنيم " . فان لم تصدقينى ضربت عنقك بالسيف فقالت له :" إن أباك كان عنينا " – أى لا يستطيع معاشرة النساء فخفت على المال فمكنت راعياً من نفسى، فأنت ابن ذلك الراعى، فلم يعرف أنه ابن زنا حتى نزلت هذه الآية .

وهى قوله تعالى :

﴿ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ ﴾ [سورة القلم :١٣]

يقول الإمام الفخر :

" الوجه أكرم موضع في الجسد، والأنف أكرم موضع من الوجه لارتفاعه عليه ولذلك جعلوه مكان العز والحمية، واشتقوا منه الأنفة .

هذه آيات أنزلها الله تعالى فى الوليد بيَدْ أنها عامة تخص كل مسلم ومسلمة فواجب علينا نحن المسلمين أن ننأى بأنفسنا عن هذه الخِلاَل الذميمة والتى سجلها الله فى القرآن الكريم .

حتى يكون المجتمع الاسلامى ، مجتمعاً نظيفاً سليماً ، معافى من هذه الخصال المذمومة لدى الناس فى الدنيا ، ولدى اللّٰه – سبحانه وتعالى – فى الآخرة ، وحتى نكون من الذين ابيضت وجوههم ، وفى رحمة اللّٰه خالدون(١) .

---

1 - تفسير النسفى ، المجلد الثاني . ط دار الفكر ص ٢٨٠ ، وما بعدها .
- البحر المحيط ، جـ ١٠ ، ص ٢٣٨ ، و ما بعدها .
- تفسير القرطبي ، جـ ١ ، ص ٦٧١٠ ، و ما بعدها .
- تفسير ابى السعود جـ ٥ ، ص ٧٥٣ ، و ما بعدها.
- تفسير المراغى ، جـ ١٠ ، ص ٣١ ، وما بعدها.
- فى ظلال القرآن الكريم ، جـ ٦ ، ص ٣٦٦٢ ، و ما بعدها.
- تفسير ابن كثير ، جـ ٤ ، ص ٤٠٣ ، و ما بعدها .
- التفسير الكبير للرازى ، جـ ٣ ، ص ٨٣ .
- التسهيل لعلوم التنزيل ، جـ ٤ ، ص ٤٣٠ .
- صحيح مسلم.
- صحيح البخارى .
- تفسير الجلالين و حاشية الصاوى عليه جـ ٤ ، ص ٢٣٣.
- تفسير الطبرى جـ ٢٩ ، ص ١٨ .

" الصّبر "

ومن الآيات القرآنية الكريمة والتى تحض على التحلى بالاخلاق الفاضلة والتمسك بالقيم والمبادئ القويمة ، كما أنها تحث على السلوك الحضارى الذى يسعد به المسلم فى الحياة الدنيا ، و تجعله يفوز برضوان الله تعالى فى الدار الآخرة يوم لا ينفع مال و لا بنون الا من أتى الله بقلب سليم . هذه الآية هى قول الحق سبحانه :

﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا ١٠﴾ [سورة المزمل :١٠].

يوجه الله –سبحانه و تعالى - نبيه محمد – صلى الله عليه وسلم – إلى الأخلاق الحميدة ، كما يوجه أمته فخاطب النبى – صلى الله عليه وسلم – خطاب لأمته فيأمره بالصبر على أذى قومه له ، وعلى ما يقولون فيه ، وفى ربه حيث أنهم سُفَهاء ، وضالون ومكذبون ، فأصبر على أذاهم وعلى ما يقولونه فيك وفى الله – عز وجل - واهجرهم هجراً جميلاً ، و ذلك بأن تداريهم ، وتجانبهم ، مع الإغضاء عن زلاتهم ، وعدم معاتبتهم .

والمراد بالهجر الجميل هو المجانبة بالقلب والهوى ، والمخالفة فى الأفعال مع الإغضاء والمدارة ، و ترك المكافأة . ومثلها قول الحق – عز وجل - :﴿وَإِذَا رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَلَا تَقۡعُدۡ بَعۡدَ ٱلذِّكۡرَىٰ مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٦٨﴾ [سورة الأنعام :٦٨]

ويقول صاحب " مدارك السالكين " : الهجر الجميل هو الذى لا أذى فيه ، والصبر الجميل لا شكاية فيه والصفح الجميل هو الذى لا عتاب فيه .

ويقول " ابن كثير " :- رحمةُ الله عليه – أمر الله رسوله – صلى الله عليه وسلم – بالصبر على ما يقوله من كذبه من سفهاء قومه وأن يهجرهم هجراً جميلاً و هو الذى لا عتاب منه .

و يقول الإمام " القرطبي " واصبر على ما يقولون واهجرهم هجراً جميلا . يعنى أصبر على ما يقولونه من الأذى ، والسب والإستهزاء ، ولا تجزع من قولهم ولا تمتنع من دعائهم ، ولا تتعرض لهم ، ولا تشتغل بمكافأتهم فإن فى ذلك ترك الدعاء الى الله .

وكان هذا قبل الأمر بقتالهم فأمره الله تعالى بالصبر على أذاهم ، ثم بعد ذلك أمره بقتالهم ، فكأن الأمر بالقتال جاء بعد صبر وإحتمال للأذى و المكاره و تجنب أذاهم فلما تمادوا وزاد عتاهم و جحودهم وإصرارهم على الكفر والاعتداء أمر الله نبيه – صلى الله عليه وسلم – بقتالهم و قتلهم حيث أنهم معتدون وفى الشر والكفر والعناد يتمادون .

و يقول " أبوالدرداء " – رضى الله عنه – : " انا لنكشر فى وجوه أقوام ، ونضحك اليهم ، وان قلوبنا لتقليهم أو لتلعنهم " [١] .

و قيل أن المراد " اصبر على ما يقوله عنك إنه ساحر ، وكاهن ، وشاعر و مجنون فإن الله ناصرك عليهم ومخزيهم فى الدنيا والآخرة ، وذلك جزاء تكذيبهم لك ومُقَوْلَهُم عليك واذاهم لك ولأصحابك .

واتركهم و لا تتعرض لهم بسب ، ولا شتيمة ولا أذى . والحكمة من وراء ذلك أن المؤمنين كانوا قلة بمكة ومستضعفين فلذلك أمروا بالصبر ، والمجاهدة الليلية ، حتى يُعَدّوا أنفسهم بهذه التربية الروحية على مناجزة الأعداء و حتى يكره عدوهم ويكون فى وسعهم الوقوف فى وجه الطغيان ، ومحاربة المعتدين المكذبين بيوم الدين .

أما قبل الوصول إلى مرحلة الإستعداد الروحى والكفاءة القتالية فينبغى عليهم الصبر والمصابرة ، والإقتصاد على الدعوة باللسان فحسب .

وظل الأمر كذلك حتى كثر عدد المسلمين وتهيأوا للقتال روحياً و معنوياً و عدداً أمر الله نبيه – صلى الله عليه وسلم – بأن يجهر بالدعوة : فقال له – عليه الصلاة والسلام – " فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين " .

فامتثل النبى – صلى الله عليه وسلم – أمر ربه وصعد على " جبل الصفا " وناداهم يابنى فلان ، يا بنى فلان ، حتى اجتمعوا اليه فقال لهم قولته الشهيرة : " أرأيتم لوان خيلاً بالوادى تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي ؟ .

---

1 - الزيادة فى كتاب " النهاية " لابن الاثير .

قالوا له : نعم ، ما جربنا عليك كذبا قط .

فقال لهم – علية الصلاة والسلام - : إنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد . فأنبرى له " أبو لهب "وقال له : " تبا لك . ألهذا جمعتنا ؟ !! فتكفل الله بالسر وعليه قوله سبحانه :-

﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ۝٥﴾ [سورة المسد١ :٥] .

يقول المفسرون : " الهجر الجميل هو الذى لا عتاب معه " هذه هى الأخلاق القرآنية العظيمة التى يجب أن يتحلى بها المسلم حتى تسود الفضيلة وتختفى الرذيلة ويعم الحب والاخاء ، والمودة ، ولا يكون هناك عتاب حتى لا تتجدد البغضاء ، وتتولد الشحناء ، وتتنافر القلوب . ويكون الأمر كما قال الشاعر :

إن النفوس إذا تنافر ودها   مثل الزجاج كسرها لا يجبر

والمراد نزع البغضاء ، والنأى عن الشحناء ، حتى يعم الحب فى المجتمع الإسلامى و بين المسلمين ، فلوان المسلمين اهتدوا بهدى القرآن الكريم والأخلاق القرآنية لسعدوا فى دنياهم وأُخراهم . (١)

1- تفسير ابن كثير جـ ٤ ، ص ٤٣٧.
- تفسير المراغى جـ ١٠ ، ص ١١٥ ، وما بعدها .
- تفسير القرطبي جـ ١٠ ، ص ٦٨٣٧ .
- مختصر ابة السعود جـ ٥ ، ص ٧٨٥ ، ط دار الفكر.
- مختصر تفسير ابن كثير جـ ٣ ، ص ٥٦٤.
- حاشية الصاوى على الجلالين جـ ٤ ، ص ٢٦٠.
- التسهيل لعلوم التنزيل جـ ٤ ، ص ١٥٨ .
- البحر المحيط جـ ٨ ، ص ٣٦٤.

" توجيهات إلهية "

و من الآيات التى تتحدث عن الأخلاق فى القرآن الكريم قوله – سبحانه وتعالى- : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴿٥﴾ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴿٦﴾ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ﴿٧﴾﴾ [سورة المدَّثر١ :٧].

وروى "جابر بن عبد الله"عن النبى–صلى الله عليه وسلم – قال :" كنت على جبل حراء ، فنوديت يا محمد إنك رسول الله ، فنظرت عن يميني ويساري ، فلم أَرّ شيئاً ، فنظرت فوقي ، فرأيت الملك قاعداً على عرش بين السماء والأرض ، فخفت ورجعت إلى خديجة ، فقلت : دثروني دثروني ، وصبوا عَلَيَّ ماءً بارداً ، فنزل جبريل عليه السلام بقوله : { يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ} [سورة المدثر :١] »

الى قوله تعالى " وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ " [سورة المدثر :٥] .

و قد أمر الله رسوله بالإنذار، و تطهير نفسه من دنيء الأخلاق والمآثم والصبر على أذى المشركين ، فإنهم سيلقون جزاءهم يوم ينفخ فى الصور، و هو يوم شديد الأهوال على الكافرين ، ليس بالهين عليهم .

وفى تفسير " أبى السعود " قيل : أن النبى – صلى الله عليه وسلم - سمعَ منْ قريشٍ ما كرهَهُ فاغتمَّ فتغطّى بثوبِه متفكراً كَمَا يفعلُ المغمومُ فأُمِرَ أنْ لا يدعَ إنذارَهم وإنْ أسمعُوه وآذوه .

قيلَ : كانَ نائماً متدثراً .

و قيلَ : المرادُ المتدثرُ بلباسِ النبوةِ والمعارفِ الإلهيةِ . الشعار هوالثوب الذى يلى الجسد مباشرةً ، والدثار يكون فوقه .

ويقول النبى – صلى الله عليه وسلم - :

" يا معشر الانصار أنتم الشعار، والناس الدثار " .

و هذا دليل على نصرة الأنصار له ، و قربهم الى قلبه ، ولا غَرْوَفهم الذين نصروه وأصحابه ، واستقبلوهم بالمدينة خير استقبال .

و يقول عبد الله بن عباس – رضى الله عنهما:

إن " الوليد بن المغيرة " صنع لقريش طعاماً، فلما أكلوا.

قال: ما تقولون في هذا الرجل؟ .

فقال بعضهم: ساحر.

وقال بعضهم: ليس بساحر.

وقال بعضهم: كاهن.

وقال بعضهم: ليس بكاهن.

وقال بعضهم: شاعر.

وقال بعضهم: ليس بشاعر.

وقال بعضهم: بل سحر يُؤثر.

فأجمع رأيهم : على أنه سحر يؤثر.

فبلغ ذلك النبي – صلى الله عليه وسلم - فحزنَ وقَنعَ رأسه وتَدثَّر، فأنزل الله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴿٥﴾ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴿٦﴾ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ﴿٧﴾﴾[سورة المدَّثر ١ :٧].

فقوله {قُمْ فَأَنذِرْ} أي: شمر عن ساق العزم، وأنذر الناس.

وبهذا حصل الإرسال ، كما حصل بالأول النبوة مع تعظيم ربك .

وعن عكرمة عن ابن العباس – رضى الله عنهم – انه أتاه رجل فسأله عن هذه الآية " وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ " فقال : " لا تلبسها على معصية ولا على غدرة " .

ثم قال: أما سمعت قول غيلان بن سلمة الثقفي:

فَإني بحمد الله لا ثوبَ فَاجر لبستُ ولا من غَدْرَة أَتَقَنَّعُ

ومنه ما روى ان النبى – صلى الله عليه وسلم – قال :

" يُحْشَرُ المرؤ فى ثوبيه اللَّذيَن مات عليهما " يعنى عمله الصالح والطالح .

منهم من قال : و نفسك فطهر، ومن ذلك قول " عنترة بن شداد ":

فشككت بالرمح الطويل ثيابه ليس الكريم على القنا بمجرم

و قال أمرؤ القيس :

ثياب بني عوف طهارى نقية وأوجههم بيض المسافر غران

يعنى " انفس بنى عوف " ، ومما جاء عن العرب فى الكناية عن الجسم بالثياب قول " ليلى " :

رموها بأثواب خفاف فلا نرى لها شبهاً إلا النعام المنفرا

أى ركبوها فرموها بأنفسهم .

وقيل هوالطهارة من كل ما يدنس المسلم من ثياب و غيرها فالآية دعوة إلى الأخلاق الكريمة ، والسلوك الحسن ، والسيرة العطرة والنأى عن كل ما يشوب سلوك المسلم بشائبة ، فالطهارة عامة فى كل شيء ، فى الثياب والسلوك والسيرة ، و فعل الطاعات والنأي عن المعاصي . فالمراد هنا إصلاح العمل قولاً و فعلاً ، وسلوكاً ، و ظاهراً وباطناً يؤيد صدق ما ذهبنا اليه إن العرب كانت تُسَمْى الرجل إذا نكث ولم يَفِ بعهد الله " إنه لدنس الثياب " .

واذا وفى وأصلح " إنه لمطهر الثياب " .

وقيل فى قوله تعالى : " وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ "

كلام جامع لمكارم الأخلاق كأنه قيل له أهجر الجفاء ، والسفه ، و كل قبيح ولا تتخلق بأخلاق هؤلاء المشركين ، والمراد بالهجر : " المداومة على ذلك الهجران مثل ما يقول المسلم " إهدنا الصراط المستقيم . فليس المعنى أنه ليس على الهداية ، بل المراد ثبتنا على هذه الهداية ، ولا تعطى الناس عطاء و تستنكره ، لأن الكريم يستقل ما يعطى وإن كان كثيراً ، وأعط عطاءً من لا يخاف الفقر .

و يقول " ابن عباس – رضى الله عنهما – لا تعطى عطيةً تلتمس بها أفضل منها، بمعنى لا تَعْطِي شيئا لتُعْطَى أكثر منه ، وسر النهى هوان يكون العطاء خالياً عن إنتظار العوض تعففا وكمالا ..

فان النبى – صلى اللّه عليه وسلم – مأمور بأشرف الآداب ، وأجل الأخلاق وأصبر على أذى قومك إبتغاء وجه ربك .

يقول الشاعر :

إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه ... فكل رداء يرتديه جميل

فالآية شاملة لكل خِصْلَة حسنة ، و جميع سلوك حميد ، وطهارة الثياب والقلب ، ونقاء الضمير ، وصفاء السريرة ، وكانت العرب تطلق الثياب عليه فقال الشاعر **" أمرؤ القيس "** :

أفاطمَ مَهلا بعض هَذا التَدلُّل ... وَإن كُنت قَد أزْمَعْت هَجْري فأجْمِلي

وَإن تَكُ قَد سَاءتك مني خَلِيقَةٌ ... فَسُلّي ثِيَابي مِن ثيابك تَنْسُلِ

هذا مع هجر جميع المعاصي ، والنأى عن كل المناكر ، وعدم إجتراح السيئات .

ومن الأخلاق الإسلامية الحميده ألاَّ تُعطى عطاءً و تنتظر أكثر منه ، وقيل لا تمنن عملك على ربك فنعمه أَجَلْ ، و فضله أعظم ، و رحمته أوسع ، و كرمه أشمل .

﴿...وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ....﴾ [سورة إبراهيم:٣٤].

وأجعل صبرك على أذاهم لك فى سبيل الله و خالصا لوجهه حتى تفوز برضوان الله – سبحانه و تعالى – وفى خطاب الله تعالى لنبيه – صلى الله عليه وسلم – : تلطف من الكريم وهو الله الى الحبيب وهو سيدنا محمد – صلى الله عليه وسلم – مثل قوله – صلى الله عليه وسلم – " لعلى " – رضى الله عنه – إذ نام في المسجد: (قم أبا تراب) وكان خرج مغاضباً لفاطمة رضي الله عنها فسقط رداؤه وأصابه التراب.

ومثله قوله – عليه الصلاة والسلام – لحذيفة ليلة الخندق:(قُمْ يَانَوْمَان) .

يروى أن النبى – صلى الله عليه وسلم – عندما نزلت هذه الآية وهى قوله : " وربك فكبر " قام النبى – صلى الله عليه وسلم – وقال " الله اكبر " فقامت السيدة خديجة و قالت :

" الله اكبر " وعلمت أنه الوحى من الله تعالى .

والعرب تسمى " الأهل " ثوبا ، ولباساً وازاراً قال تعالى :–

﴿... هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ...﴾ [سورة البقرة :١٨٧].

و قيل المراد وخلقك فحسن ، وأمأنا آنفا أن المراد بهذه الآية الطهارة فى كل شيء وأن كل شيء .

والعرب تعنى بطهارة الثياب : سلامتهم من الذناءات ، و يعنى بغرة وجوههم تنزيههم عن المحرمات ، يقول " سفيان بن غيتة " لا تلبس بثابك على" كذب ، أو جور غدر ، أواثم . ومنه قول النابغة :

رقاق النعال طيب حجزاتهم يحيون بالريحان يوم السباسب

و قال الشاعر أمرؤ القيس :ثياب بني عوف طهاري نقية.

وقد إستبان للمشتغلين بأصول التشريع ، وعلماء الاجتماع من الأوروبيين أن أكثر الناس قذارى فى أجسامهم ، وثيابهم أكثرهم ذنوبا ، وأطهرهم أبدانا وثياباً أبعدهم عن الذنوب ، ومن ثم أمروا المسجونين بكثرة الإستحمام ، ونظافة الثياب ، فحسنت بذلك أخلاقهم وخرجوا من السجون ، وهم أقرب إلى الأخلاق الفاضلة منهم إلى الرذائل .

يقول الأستاذ " بتنام " فى كتابه " أصول الشرائع " إن كثرة الطهارة فى دين الإسلام مما تدعو معتنقيه إلى رُقِىّ الأخلاق والفضيلة إذا قاموا باتباع أوامره خير قيام.ومن هنا تعلم السر فى قول الحق –سبحانه و تعالى – :

﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾﴾ [سورة المدثر :٤].

و يقول القرطبي :-

" والزجر فاهجر " يقول مجاهد وعكرمة – رضى الله عنهما – يعنى " الاوثان " دليل ذلك قوله تعالى " فاجتنبوا الرجس من الاوثان " .

ويقول ابن عباس – رضى الله عنهما – والمآثم فاترك .

ويقول " قتادة "– رضى الله عنه – " الرجز " هو " إساف ونائلة " وهما صنمان كانا عند البيت .

وقيل " الرجز " العذاب ، وقال تعالى:

﴿...لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ ...﴾ [سورة الأعراف :١٣٤] .

وقال تعالى:

﴿...فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا ...﴾ [سورة الأعراف :١٦٢] .

فسميت الاوثان رجزاً لأنها تؤدى إلى العذاب .

﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦﴾ [سورة المدثر :٦] .

يعنى : لا تمنن على ربك بما تتحمله من أثقال النبوة . وقيل: لا تعطى لتأخذ أكثر مما أعطيت من المال .

وفى تفسير " المراغى " " ولا تمنن تستكثر " ولا تمنن على أصحابك بما علمتهم وبلغتهم من الوحى مستكثراً عليهم ، وقد يكون المعنى لا تضعف من قولهم " حبل منين ، أى ضعيف ، ومنه السير ، يعنى أضعفه ، فالمراد لا تضعف أن تستكثر من الطاعات التى أمرت بها قبل هذه الآية ، وقد يكون المراد كما قال " ابن كيسان " :

" لا تتنكر عملا فتراه من نفسك ، إنما عملك منة من الله عليك إذ جعل لك سبيلا إلى عبادته . " ولربك فاصبر "يعنى على طاعته وعبادته . " .

ويقول " مقاتل ومجاهد " – رضى الله عنهما – " اصبر على الاذى والتكذيب ولا تجزع من أذى من خالفك ".

هذه توجيهات القرآن الكريم ، وإرشاداته العظيمه والتى توجه المسلمين إلى التحلى بالأخلاق الفاضلة ، والخلال الكريمة ، والصفات الحميدة ، والسلوك السوى المستقيم ، وبذلك يسعد المؤمن فى الدنيا ، ويفوز برضوان الله تعالى فى الآخرة .

فلوان المسلمين إستمسكوا بهذه التوجيهات لقادوا و سادوا ، و ملكوا زمام الدنيا خاصة فى هذا العصر الذى يموج بالفتن ، والتيارات الوافدة ، والاعاصير والرياح الهوجاء التى تهب على العالم الاسلامى من كل حدب وصوب .[١]

1- روح المعانى للالوسى ، جـ ٢٩ ، ص ١١٦.

" العدل والإنصاف "

ومن الأخلاق القرآنية الكريمة ، الحث على العدل الاجتماعى ، والذى يتمثل فى المكيال والميزان ، وعدم الغش فيهما حيث أن ذلك التطفيف فى المكيال والميزان يترتب عليه إضاعة الحقوق ، وفساد المجتمع أخلاقياً ، و هو لون من ألوان الفجور.

ولقد روى " النسائى عن ابن عباس – رضى الله عنهما – قال : " لما قَدِمَ النبى – صلى الله عليه وسلم – المدينة كانوا من أخبث الناس كيلاً فأنزل الله تعالى :

﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ ١﴾ [سورة المطففين :١].

فأحسنوا الكيل بعد ذلك ، وكانوا من أوفى الناس كيلاً إلى يومنا هذا .

وعن ابن عباس – رضى الله عنهما – قال : هى أول سورة نزلت على رسول الله –صلى الله عليه وسلم– ساعة ما نزل المدينة ، وكان هذا فيهم . كانوا إذا إشتروا استوفوا بكيل المدينة ، واذا باعوا بخسوا المكيال والميزان فلما نزلت هذه السورة انتهوا فهم أوفى الناس كيلاً إلى يومنا هذا وقيل : أنها نزلت فى رجل يعرف " بأبى جينه واسمه عمرو " كان له صاعان يأخذ بإحداهما ويعطى بالآخر.

" ويل للمطففين " توعدهم الله بالهلاك والدمار والغذاب لهؤلاء الذين ينقصون المكيال والميزان مبينا أوصافهم القبيحة و هى إذا أخذوا الكيل من الناس أخذوه وافيا كاملا لأنفسهم ، واذا كالوا للناس ، أو وزنوا لهم تراهم ينقضون الكيل والوزن و هو وعيد لكل من طفف الكيل والوزن ، وقد أهلك الله قوم سيدنا " شعيب" – عليه السلام – لبخسهم المكيال والميزان ، و فى الحديث :-" وَلاَ تطفوا الكيل أَلاَ

منعوا النبات ، وأخذوا بالسنين " وهو جزء من حديث أخرجه " الحاكم والطبرانى " عن ابن عباس – رضى عنهما– مرفوعاً ، أَلاَ يعلم و يتأكد ، ويستيقن أولئك المطففون أنهم سيبعثون ليوم عصيب ، شديد الهول كثير الفزع ، هو يوم القيامة حين يقفون فى عرصاتها ، والحكم هوالله ، والخِصْمُ لهؤلاء هو رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وقد تعلق الناس بأهداب السماء يطلبون حقوقهم المغتصبة ، وأحوالهم الضائعة من هؤلاء المطففين فى المكيال والميزان ، حين يقفون فى المحشر حفاةً عراةً ، خاشعين خاضعين لله رب العالمين الذى يقتص للعجماء من القرناء ، ثم يقول لها كونى تراباً فتكون .

وفى هذا الإنكار والتعجب ، ووصف اليوم بالعظيم ، وقيام الناس لله خاضعين ووصفه برب العالمين ، دليل على عظم هذا الذنب وهو التطفيف فى المكيال والميزان .

وعن ابن عمر – رضى الله عنهما – أن النبى – صلى الله عليه وسلم – قال:

" يوم يقوم الناس لرب العالمين " ، يعنى حتى يغيب أحدهم فى رَشْحِهِ إلى أَنْصَاف أذنيه .

ويقول " أبوالسعود " : الويل هو شدة الحر ، وقيل : " العذاب الاليم ، قيل هو وادٍ فى جهنم يهوى فيه الكافر أربعين خريفا قبل أن يبلغ قعره .

فهولاء وأمثالهم ممن أمتلأت نفوسهم بالطمع واترعت بالجشع ، وإستولى على نفسه حب المال هم الذين توعدهم القرآن الكريم بالويل والعذاب الشديد فى الدار الآخرة ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾﴾ [سورة المطففين :٦]

وهم الذين توعدهم النبى – صلى الله عليه وسلم – وتهددهم بقوله : "خمس بخمس: ما نقض قوم العهد إلا سلط الله عليهم عدوهم، ولا حكموا بغير ما أنزل الله إلا فشا فيهم الفقر، وما ظهرت الفاحشة فيهم إلا ظهر فيهم الطاعون، وما طففوا الكيل إلاَّ منعوا النبات، وأخذوا بالسنين، ولا منعوا الزكاة إلا حَبَسَ الله عنهم المطر " .

و قد بين الله – سبحانه وتعالى – عمل المطففين الذين استحقوا عليه هذا الوعيد بقوله تعالى :

﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ﴾

[سورة المطففين٢ :٣].

يعنى اذا كان لهم عند الناس حق فى شيء من الكيل أوالوزن اخذوا وافيا واذا كان لأحد عنهم شيء وأرادوا رده ناقصاً ، وغير وافٍ ، وكما يكون التطفيف فى الكيل والميزان ، يكون فى اشياء أخرى فمن استأجر عاملاً ، ووقف يراقبه و لم يُؤَدّ عمله على الوجه الذى يجب ان يكون دخل فى ذلك الوعيد ، فما ظنك بأولئك الذين يأكلون اموال الناس بِلا كيل أو وزن ، بل يأخذون منهم و يسلبونهم ما بأيديهم اعتماداً على المنصب أوالقوة ، أوالجاه ، أوالسلطان ، إن هؤلاء يحسبون فى عداد المطففين ، الجاحدين، المنكرين ليوم الدين والجزاء العادل من الله – سبحانه و تعالى – ثم نرى هذا التهويل فى قول الحق – سبحانه و تعالى – :

﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ ۝٤ لِيَوۡمٍ عَظِيمٍ ۝٥﴾ [سورة المطففين ٤ :٥] .

فإن تطفيف الكيل والميزان ، واختلاس أموال الناس بهذه الوسائل لا يصدر إلاَّ عن شخص لا يظن انه سيبعث انه ليجرؤ على فعل ما قدم ، ويحاسب على

عمله ، انه ليجرؤ على فعل هذه القبائح من كان يظن بوجود يوماً يحاسب الله فيه عباده على اعمالهم ، فما بالك بمن يستيقن ذلك .

﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾﴾ [سورة المطففين :٦]

هذا اليوم هواليوم يعنى فى النْار ولكنه على المؤمنين قدر صلاتهم الفريضة .

هذه الأخلاق فى القرآن الكريم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وهو هُدْىً للمتقين الذين يراقبون الله – عز وجل – فى كل اعمالهم ، وخاصة الكيل والميزان ونحن نرى ان هذا مثال لتنبه المؤمن ، ويعدل فى كل شيء وليس فى الكيل والميزان فحسب ، بل يعدل فى نفسه ، وولده ، وأهله ، و مع الناس وفى القضاء حيث يترتب على التطفيف اضاعة حقوق الناس ، ونشر الفساد فى الأرض، فعلى كل مسلم أن يكون عادلاً وألاّ يكون مُطَفْفِاً فى أى شيء ، وفى أى أمر من أمورالحياة الدنيا ، فإن وعد الله لآت ويعد هذا من قبيل الظلم للنفس والأهل ، والناس وفى ذلك عذاب شديد للذين يفعلون ذلك و لا يخشون ربهم ولا يعملون ليوم يقومون فيه لرب العالمين [1] .

1- تفسير المراغى ، جـ ١٠ ، ص ٧١ ، وما بعدها .
- تفسير ابى السعود ، جـ ٥ ، ص ٨٤٢ ، و ما بعدها .
- تفسير القرآن العظيم لابن كثير ، جـ ٤ ، ص ٤٨٣.
- البحر المحيط ، جـ ١٠ ، ص ٤٢٥ ، و ما بعدها .
- صفوة التفاسير ، جـ ٣ ، ص ٥٣٢ ، وما بعدها .
- تفسير القرطبي ، جـ ١ ، ص ٧٠٤١ ، وما بعدها .
- روح المعانى للالوسى ، جـ ٣ ، ص ٧١.
- مختصر تفسير ابن كثير ، جـ ٣ ، ص ٦١٤ .
- التذكرة فى احوال الموتى وامور الآخرة ، للقرطبى.

الذى يقف فيه الناس للعرض والحساب ، ويطول بهم الموقف إعظاماً لجلاله تعالى ولا يُخْفى ما فى الوصف " برب العالمين " من الدلالة على عظم الذنب وتفاقم الاثم حيث ان الميزان هو قانون العدل الذى قامت به السماوات والأرض .

وعن ابن عمر – رضى الله عنهما – أنه كان يمر بالبائع فيقول اتق الله تعالى وأوفى الكيل ، فإن المطففين يوقفون ليوم القيامة لعظمة الرحمن حتى ان العرق ليلجمهم .

و عن عكرمة – رضى الله عنه – أنه قال : " أشهد أن كل كَيالٍ وَوَزانٍ فى النار وكأنه أراد المبالغة ، و بيان أن الغالب فيهم هو التطففيف .

ويقول " مالك بن دينار " دخلت على جَار لى قد نزل به الموت ، فجعل يقول : " جبلين من نار " ، فقلت : " ما تقول ؟ انجز ؟

قال : " يا ابا يحيي كان لى مكيالان أُكيلُ بأحدهما ، واكتال بالآخر فقمت فجعلت أضرب أحداهما بالآخر حتى كسرتهما ، فقال : " يا أبا يحيي ، كلما ضربت أحداهما بالآخر ازداد عظما فمات من وجعه .

يقول " الاصمعى " : " سمعت إعرابيه تقول : " لا تلتمس المروءة ممن مروءته فى رؤوس المكاييل لأنه السنه الموازين ، و روى ذلك عن عَلِىَّ – رضى الله عنه – ومر عَلِىّ – رضى الله عنه- على رجل وهو يزن الزعفران و قد رَجح فأكفأ الميزان ثم قال :أقم الوزن بالقسط ، ثم ارجح بعد ذلك ما شئت كأنه أَمَرَهُ بالتسوية أولاً ليعتادها ، ويفصل الواجب من النقل .

والظن فى قوله تعالى: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ﴾ [سورة المطففين :٤].

بمعنى اليقين ، وقيل بمعنى التردد .

وعن " عبد الله بن مروان " أن إعرابيا قال له : " سمعت ما قاله الله تعالى فى المطففين ، أراد بذلك أن المطففين قد توجب عليهم هذا الوعيد العظيم الذى سمعت به فما ظنك بنفسك وأنت تأخذ أقوال المسلمين بلا كيل أو وزن .

و قد قرأ ابن عمر – رضى الله عنهما – ويل للمطففين ، حتى بلغ قوله تعالى :

﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٦﴾ [سورة المطففين :٦].

فبكى حتى سقط ، و انتهى من قراءة ما بعده ، ثم قال : " سمعت النبى – صلى الله عليه وسلم – يقول : " يوم يقوم الناس لرب العالمين فى يوم كان مقدارة خمسين ألف سنة فمنهم من يبلغ العرق كعبيه ، و منهم من يبلغ العرق ركبتيه ، ومنهم من يبلغ العرق عقبيه، ومنهم من يبلغ صدره ، ومنهم من يبلغ أُذنيه ، حتى أن أحدهم ليغيب فى رشحه كما يغيب الضفضع .

مصادر الكتاب

القرآن الكريم .
السنة النبوية المطهرة .

- ✓ فتح البارى فى شرح صحيح البخارى ، للإمام الحافظ ابن حجر العسقلانى . نشر دار الريان للتراث بالقاهرة سنة ١٩٨٧ م ، تحقيق محب الدين الخطيب .
- ✓ سنن ابن ماجة ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى ، نشر دار إحياء التراث العربى بالقاهرة .
- ✓ سنن النسائى بشرح الحافظ جلال الدين السيوطى وحاشية الامام السندى نشر دار الكتب العلمية ، بيروت . لبنان .
- ✓ السنن الكبرى للإمام البهيقى ، تحقيق محمد عبد القادر عطا – نشر دار الكتب العلمية – بيروت . لبنان .
- ✓ البحر المحيط .
- ✓ البحر المديد ، لإبن عجيبة .
- ✓ التحرير والتنوير ، لعاشور.
- ✓ التسهيل لعلوم التنزيل ، لإبن جزرى .
- ✓ التفسير الكبير، للفخر الرازى .
- ✓ الزيادة فى كتاب " النهاية " لإبن الاثير.
- ✓ المعجم الوافى لكلمات القرآن الكريم تأليف : محمد عتريس ، ط : مكتبة الآداب بالقاهرة الطبعة الأولى ١٤٢٧ هـ ، ٢٠٠٦ .
- ✓ بلاغات النساء لطيفور، بتحقيق د . عبد الحميد هنداوى ، دار الفضيلة .
- ✓ تفسير ابن كثير.
- ✓ تفسير أبوالسعود .

- ✓ تفسير الخازن .
- ✓ تفسير القرطبي .
- ✓ تفسير النسفى .
- ✓ تفسبر القرطبي ، ط . دار الريان للتراث . القاهرة.
- ✓ تفسير المراغى .
- ✓ تفسير الكشاف ، للزمخشرى .
- ✓ حاشية الصاوى على الجلالين .
- ✓ حاشية الشهاب للبيضاوى ، ط . مؤسسة التاريخ العربى .
- ✓ خلق المسلم الشيخ محمد الغزالي، ط . نهضة مصر .
- ✓ روح المعانى للألوسى ، ط . دار الفكر سنة ١٤١٤ هـ ، ١٩٩٤ م
- ✓ فى ظلال القرآن للإمام الشهيد سيد قطب ، ط . دار الشروق .
- ✓ لطائف الاشارات للإمام القشيرى ، ط . مركز تحقيق التراث ، الهيئة المصرية للكتاب ص ١٩٨٣م .
- ✓ مختصر تفسير ابن كثير.
- ✓ مفاتيح الغيب .